
هذا هو الحب
يوسف السباعي



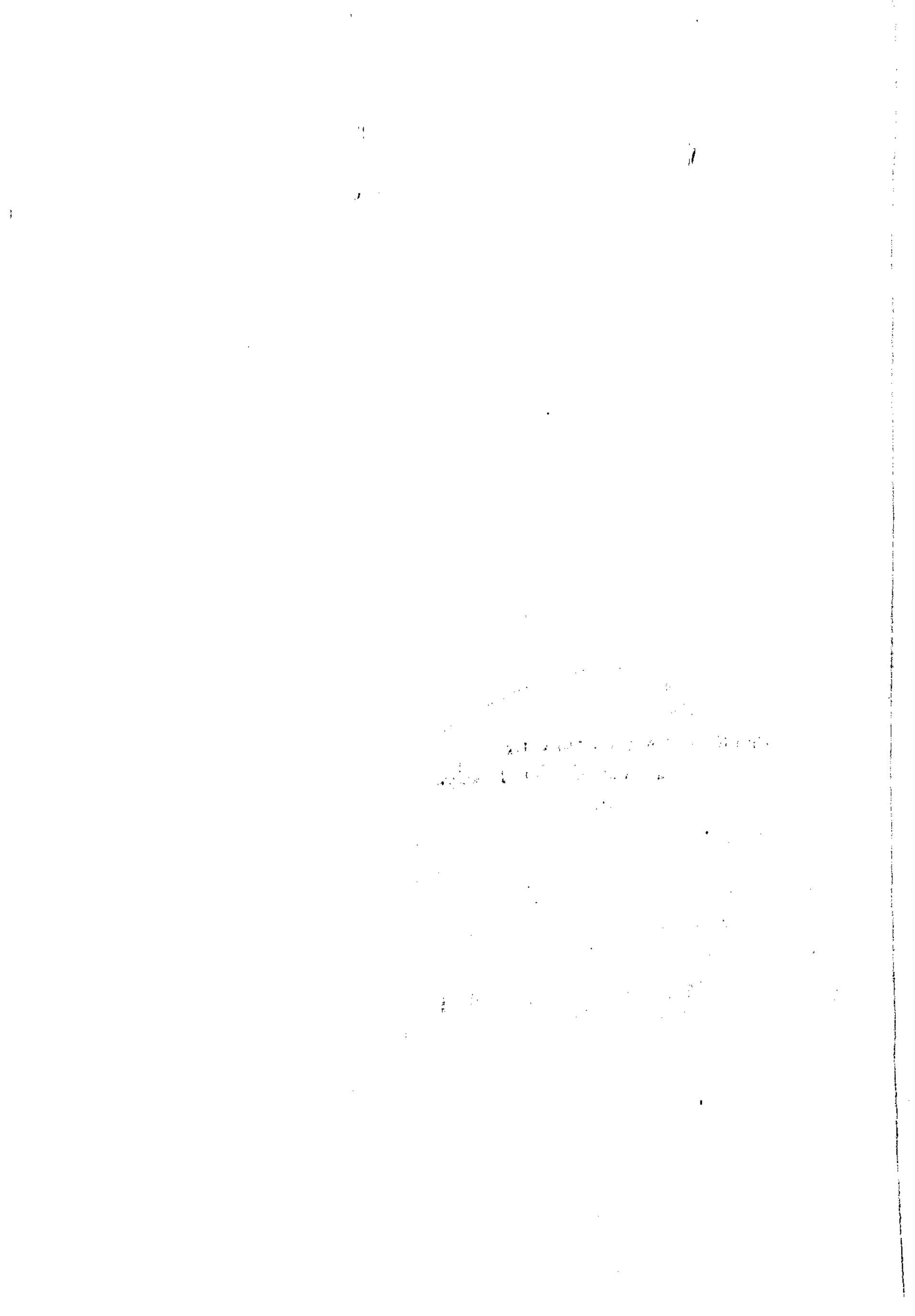
يوسف السباعي

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتب عربي
(شراء)

رقم التسجيل ٦١٦:٥

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



إهـــداء

بالائمى فى الهوى ..
يا ناصحى بالتقى ..
أمسك عن لومك .. وكف عن نصحك .
أو إليك كتابى .. لتعرف بعض مابى :
فإذا سألوك .. أصاحبك مجنون ؟
فقل لهم لا ..

هذا هو الحب ...

أهوى الهوى كل ذى لب فلست ترى
إلا صحيحاً له أفعال مجنــون

يوسف السباعى

جمال الإيقاع

لايكفي لكي ينجح الرسام أن يظهر في صورة جمال الوجه والجسد .. أن المعجزة هي أن يظهر جمال الروح وفرط الشعور والاحساس ....

كانت بنفسى لهفة على لقائه ، وحنين إلى رؤيته .. فما عشقت فى حياتى فناناً كما عشقته . بل ما اعتبرت أن هناك فناناً فى هذه الدنيا سواه .. كنت أنظر إلى لوحاته فلا أصدق أنها من زيت وألوان ، وأكاد أقسم أنها من لحم ودم .. فقد كانت تفيض بالمشاعر والمعانى ، وكم من مرة جلست أنعم البصر فيها ، فيخيل إلىّ أنى أسمع من الشفاه همساً ، وأحس من الأنفاس حرارة ، ومن العيون بريقاً ، فأمد يدى لأقرن اللمس بالحس ، فإذا بى أفقد هذا وأفقد ذاك ، وإذا بالحياة الفياضة قد أضحت لوحات باردة جامدة .

كنت أنظر إلى صوره ، فإذا بها تنتزعنى من دنياى لتحملنى إلى دنياها .. أجل ! . ما أبصرت قط صورة من صوره إلاّ وعشت فيها ... فى عصرها ، وفى جوّها ، بين نسائها ورجالها ، ومقاعدها وموائدها ، كنت أحس أننى لم أملك الصورة ، وإنما هى التى

ملكتني ، وأنني ما احتويتها في داري ، بل احتوتني في حناياها وأركانها .

كانت صوره هي ملهمتي في الكتابة ، ومبعث الوحي عندي .. كنت أبصرها فأحيا مع أشخاصها وأتحرك معهم وأجول في ماضيهم وحاضرهم ، وأجد نفسي مدفوعاً إلى الكتابة عنهم ... وإلى أن أجعل أبطال الصورة أبطالا لقصة . وهكذا رأيتني أكتب القصة للصورة ، بدلا من أن ترسم الصورة لقصة أضعها .

وكان أعجب ما في صورة تلك الأجساد العارية التي لم تكن تخلو منها صوره ، وكان بها من فرط التشابه ما يجعلني أجزم بأن نموذجه في كل صوره واحد لايتغير .. فذلك الأنف الروماني المستقيم ، وذلك الصدر في بروزه العجيب كأنه فاكهة ممتلئة ناضجة ، وذلك الخصر الضيق النحيل ، والأرداف المستوية والسيقان الملفوفة ، كل ذلك كان يوحي إلّي بأن صاحبه لم يكن سوى امرأة واحدة .

ولم أكن أعلم عن الفنان شيئاً إلا أنه صاحب تلك الصور العجيبة ، حتى التقيت ذات يوم بفتاة أجنبية علمت أنها رسامة ماهرة ، فسألتها عما إذا كانت تعرفه ، فرفعت إلّي وجهاً مليئاً بالدهشة لتقول :

– أعرفه ؟ إننا من بلدة واحدة ، بل إن داره لاتبعد عن دارنا إلا بضع خطوات ، إنه أحد أولئك الذين يندر وجودهم في هذه

الحياة ، إنه مثل من المثل العليا التى لا نراها إلا فى الأوهام والأحلام ! هل رأيت شيئاً من صوره ؟

كلها تقريباً ، إنها ليست صوراً ، إنها معجزات ، فما رأيت فى حياتى شيئاً يفيض بالسحر والروعة كهؤلاء النساء اللاتى أبصرهن فى صوره .

وضحكت الفتاة ثم قالت :

– ماذا تراك قائلا ، لو أبصرت بالأصل ؟

– أى أصل ؟

– الأصل الذى يلهمه فنه ! ! أو النموذج الحى الذى ينقل عنه تلك المعجزات .

– ترى من تكون الملهمة الفاتنة ؟

– إنها زوجته .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وغادرت البلدة فى رحلة بعيدة نائية ، وفى خلال الرحلة وجدتنى فى بلدة لا تبعد كثيراً عن بلدة الفنان ، وأحسست بنفسى ميلا شديداً إلى زيارته ، فقد كان لقاؤه والتحدث إليه أول الآمال التى تجيش بها نفسى .

ولم أجد خيراً من أن أكتب إليه ، أستأذنه فى هذه الزيارة ، فقد يكون بالرجل بعض شذوذ الفنانين ، وقد يكون به نفور من الناس ، فتسوءه زيارتى المفاجئة ، وما كنت أرغب قط فى أن أسبب له ما يزعجه أو يضايقه .

وفى اليوم التالى وصلنى رده وشعرت بالسعادة تغمرنى لما به من رقة وتواضع ، وكان الرجل قد كتبه بنفسه وأنبأنى فيه أنه يرحب بزيارتى .

ولم تمض بضع ساعات حتى كنت أقف فى المكان الذى تواعدنا فيه على اللقاء ، حتى يقودنى إلى داره التى تقع فى أحد أطراف البلده ، وتلفت حولى فوجدت رجلا يقبل علىّ لم أشك لحظة فى أنه الرجل الفنان ، بقامته الفارعة ، ورأسه الصغير ، وملامحه الجذابة ، كأنه ملك من ملوك الأشوريين الذين يرسمهم فى صوره ، ومددت يدى فشددت على يده بلهفة وشوق ، وقادنى إلى عربة تنتظر لتحملنا إلى داره .

وتكلم الرجل فكان صوته موسيقياً عميقاً ، بعث إلى ذهنى كل ما أبصرت له من صوره العجيبة ، وأحسست بشئ من الزهو والنشوة وأنا أجلس جنباً إلى جنب بجوار ذلك الرجل الذى آنف أن أقارنه بغيره من البشر ، فهو فى نظرى إحدى قوى الطبيعة الخارقة كالنار والنور .

وزادت نشوتى عندما طاف بذهنى أننى سأرى « النموذج الحى » أو كما سمته الفتاة « الأصل » .

أية امرأة تلك التى أوشك أن ألقاها وأراها مرأى العين ؟ !

من يصدق أننى سأبصر بتلك الساحرة الفاتنة التى كانت مجرد صورها تبعث النشوة فى رءوسنا ؟ !

وتذكرت ما قالته الفتاة عنها من أنها ليست امرأة مجتمع وأنها لاترى خارج بيتها إلا قليلا، ولكن أولئك الذين رأوها كانت وجوههم تفيض بالنور عندما يذكرون اسمها وكانوا يحسون بالعجز عن وصفها كما يعجز طفل عن وصف شئ لم يبصر به من قبل .

ولاحت لنا الدار قائمة على ربوة تطل على النهر ، وقد أحاطت بها الشجيرات المزدهرة وكسيت جدرانها بالنباتات المتسلقة حتى بدت الدار نفسها كأنما قد نبتت من باطن الأرض ، أو كأنها من صنع الطبيعة المبدعة المتفننة .

ووقفت العربة ، ولم تكد أقدامنا تطأ الأرض ، حتى شعرنا بثلاثة أطفال بتصايحون ويقفزون حولنا .

ودخلنا الدار ، وتأملت فيما حولى ، فخيل إلىّ أنهم لو وضعونى فى تلك الدار فجأة وسألونى عمن يكون صاحب الدار ، لأقسمت لهم غير حانث أنه هو الرجل الفنان ، فهذه الرقة والذوق ، وتلك الصور التى قد علقت هنا وهناك .. وهذه الروح الجميلة الساحرة التي يكاد يبصرها المرء فى كل شئ لايمكن أن تكون هذه جميعها إلا له .

واستقبلتنا صبية فى نحو الثانية عشرة عرفنى الرجل أنها ابنته الكبرى وأنها تجيد الرسم ، ولم تكن الصبية بغريبة عنى فقد كنت أذكر جيداً ذلك الوجه الفاتن والشعر الذهبى ، وأدركت أن الصبية لابد وأن تكون شديدة الشبه بأمها .

وجلسنا فى إحدى الغرف المطلة على النهر ، وكان ضجيج الأطفال يصل إلينا واضحاً ، وقد أخذوا يلهون على شاطئ النهر ، وخيل إلى أن عددهم قد ازداد كثيراً ، فقد كنت أبصر بين آونة وأخرى وجهاً جديداً يطل علينا من باب الغرفة ثم يندفع إلى الشاطئ .

وبدأت أشعة الشمس تسطع فى هدوء ودفء ... وأبصرت بالأطفال من النافذة وقد لمعت شعورهم الذهبية فى أشعة الشمس ، وبدت أجسادهم عارية وهم يسبحون فى مياه النهر .

وحدثنى الرجل فى شتى النواحى ، فكان حديثه لطيفاً ممتعاً ، وعندما أخبرته أنى أشتغل بالكتابة أجابنى ضاحكا :

– إذ ليس عجيباً منك ذلك الحب للفن ، فكلانا عاشق للجمال ، كل بطريقته . أنت بالكلمات ، وأنا بالصور .

وسألنى بعد ذلك إن كانت بى رغبة فى رؤية بعض أعماله ؟ فأجبته :

– ليست مجرد رغبة ياسيدى .. إن بى لهفة .

وسرت معه إلى « الاستوديو » الذى يعمل به ، وكان يقع فى غرفة واسعة فى أعلى الدار .. وكان أول ما وقع عليه بصرى هى إحدى الصور التى لم ينته منها بعد ، وكانت الصورة لامرأة قد اتكأت بيدها على حافة نافذة وسبحت ببصرها فى الفضاء اللانهائى .

ووقفت مبهوتاً أمام الصورة ، إنها هي بعينها ... ذلك النموذج الذى تعودت أن أراه فى كل صورة بشعرها الذهبى ووجهها الفاتن ، وأغلب الظن أنها كانت تسبح ببصرها فى مياه النهر ، وترقب تلك الأجساد الأسطوانية البراقة وهى تغوص فى الماء .

وأخذ الرجل يشرح ويتحدث وأنا أقلب البصر فى تلك الصور المتناثرة فى أنحاء الغرفة .. وبنفسى نشوة الثمل فى قبو من الدنان ، أو الفقير فى كنز من الذهب .

وأقبلت الصبية الشقراء تدعونا للغذاء .. وتركنا الغرفة وبنفسى بعض الدهش .. فحتى تلك اللحظة لم أر للمرأة الساحرة أى أثر فى الدار ، ولم أبصر لها شبحاً أو أسمع لها صوتاً .. حتى الرجل نفسه لم يأت لها ذكر على لسانه ، ولم يفه بكلمة عنها من قريب أو بعيد .

وكنت أستبعد أن تكون المرأة قد شغلتها عنا أعمال الدار وطهى الطعام ، فما أظن ذلك النوع من النساء قد خلق لمثل تلك الأعمال ... وأغلب الظن أنها غائبة عن الدار فى قضاء حاجة .. وعللت نفسى أنها لابد عائدة قبل الغداء ، وأنى سأمتع النفس برؤيتها خلال الطعام .

وجلسنا حول المائدة .. الرجل ، وأنا .. وخمسة أطفال والصبية الشقراء ، وبدأنا الأكل ، وانتهينا منه ، ولما أبصر للفاتنة وجهاً .. حتى بدأ اليأس من رؤيتها يتسرب إلى نفسى ! !

وأدهشنى غياب المرؤة ، وأدهشنى أكثر من ذلك أن يكون لها ستة أبناء ! فمن يستطيع أن يصدق أن ذلك الجسد النموذجى قد أنهك بالحمل والولادة والرضاعة ست مرات ، ولكن من يدرى ربما كانوا من أم أخرى .

وخرجت والرجل نسير على الشاطئ ، وأنسانى حلو حديثه ورقة نفسه ما شعرت به من خيبة أمل لافتقادى المرأة العجيبة .

وبدأت الشمس تسقط فى الأفق فأورثت السماء كنوز الشفق الأحمر وعدنا إلى الدار والمرأة لا أثر لها .

وأحسست بالحزن يملأ نفسى .. هذه فرصة العمر التى قد سنحت لأبصر المرأة التى عشقت صورتها ، على وشك أن تفلت .

أترى الرجل يغار على امرأته من فرط ما بها من فتنة ، فهو لايسمح لغيره من الرجال برؤيتها ؟ . أم .. أم تراها، قد ماتت ، وأصبحت أثراً بعد عين ؟

وشعرت بقلبى يغوص بين جنبى .. فليس الأمر ببعيد وبخاصة أن الرجل لم يذكرها قط . فلعله يجزع أن تنكأ الذكرى قرحه وتدمى جرحه .

واستأذنت من الرجل أن أتركه لأعود ، ولكنه أبدى عجبه قائلا :

– ولم العجلة .. إن العربة ستعود بك فى أى وقت تشاء .. إننا

لم نتناول شاى المساء بعد .. إنى تعودت أن أشربه مع أمرأتى عندما تسقط الظلمة ، ويسعدنا أن تشاركنا إياه ..

وكدت أقفز من مكانى وأصيح من شدة الفرح ... لقذ نطق الرجل أخيراً ، وذكر امرأته .. حمداً لله ، إنها ما زالت على قيد الحياة ، وحمداً له أنى سأبصرها أخيراً بعد أن أصابنى اليأس .

وانتشر الظلام ، وتركنى الرجل وحدى فى إحدى الحجرات .. ثم عاد إلىّ بعد برهة وأخبرنى أنه قد أعد الشاى ثم قادنى إلى الحديقة واتجهنا إلى ركن بها قد تكاثفت فيه الأشجار واشتدت الظلمة .

ولم أكن أستطيع أن أميز مما أمامى سوى أشباح الأشجار والأغصان التى تهز الريح أطرافها ، وكنت أنتظر أن يوقد الرجل مصباحاً يضىء به ظلمة المكان .. ولكنه تقدم بى حتى ركن الحديقة ونحن فى حلكة دامسة .

وجلسنا تحت الأشجار ، وبدأت أتعود الظلمة حتى استطعت أن أميز أمامى مائدة عليها أدوات الشاى ، وقال الرجل مفسراً :

– إننا نفضل الظلمة ... ففيها مبعث السحر والفتنة وفيها هدوء جميل ...

ووافقت الرجل ، وإن كنت فى قرارة نفسى لا أحس أى أثر لذلك السحر والهدوء ... بل إننى لأحس بالكثير من الخوف

والرهبة وبعض من خيبة الأمل حيث أننى لن أستطيع أن أبصر من المرأة إلا شبحاً يلفه الظلام .

وبعد برهة أحسست بحفيف ثوب أقبل فى الظلمة ، وأخيراً وصلت المرأة .

وحدث ما كنت أتوقع ... فإننى لم أميز فيها إلا شبحاً أو خيالاً ، وإن كنت قد أحسست من حرارة يدها عندما صافحت يدى .. ما جعل النشوة تملأ من أخمص قدمى إلى قمة رأسى ؟

وتحدثت المرأة فإذا بصوتها قد جعلنى من فرط عذوبته أقنع منها بمجرد سماعها ، لقد أغنانى حديثها وصوتها وجمال روحها .. عن محاولة التطلع إلى جمال وجهها وجسدها ، ياللمرأة العجيبة ، لقد أحسست بجمالها دون أن أراها ، حتى لكأنها رغم الظلمة الداجية أشرقت فى فؤادى .

وافترقنا أخيراً ، وسرت مع الرجل خارج الدار وأنا أحس أن كل ما حولى جميل ، حتى أنا ، فقد خيل إلّى من فرط إحساسى بجمال المرأة ، أنها آية فى الأرض من آيات السماء ، خلقت لتمنح بسخاء هذا الجمال والرواء ، فإذا كل ما حولها ناضر جميل .

وجلست فى العربة بجوار الرجل واشتدت الظلمة وساد بيننا صمت عميق ، وراح كل منا فى غمرة من تفكيره حتى رأيت الرجل يرفع إلّى وجهه ويسألنى :

– أصدقت أننى حقاً أجد فى الظلمة هدوءاً وسحراً ؟ وأدهشنى سؤال الرجل ، وترددت برهة قبل أن أجيب :

– ولِمَ لا ؟ على أية حال أنا نفسى لا أحبها ، ولكن الناس فيما يعشقون مذاهب .

– لا ياسيدى ... أنا أيضاً لا أحبها ، دعنى أنبئك بجلية الأمر .. فإنى لا أود أن يخفى عليك شئ من أمرى ، ولا أحب أن تتهمنى بالشذوذ .

ثم صمت الرجل ولم أدر بماذا أجيبه وفضلت أن أتركه فى صمته .. حتى بدأ يتكلم أخيراً بصوت أجش عميق :

– مازلت أذكر أول مرة رأيتها فيها ، ومازلت أذكر ابتهاجى عندما أقتنعتها بأن تكون نموذجاً لتلك الصور التى كنت أبحث لها عن نموذج .

ومرت الأيام وعلاقتى بها لاتزيد على علاقة رسام بنموذج ينقل عنه .

ولكنى بدأت أحس أنها أكثر من نموذج رسام ، لقد كان بها شئ أسمى من جمال الوجه والجسد ، كان بها قلب جميل وروح أجمل .

ولا أطيل عليك فقد انتهى بنا الأمر إلى الزواج ، وما أظننى شعرت بسعادة كتلك التى شعرت بها وأنا أسير بجوارها فى يوم الزفاف .. فقد خيل إلى أنى أمسك بالأمل والمجد كله بين يدى ،

وأقول لك الحق ، لقد كانت المرأة سبباً فى كل ما أصبت من النجاح إذ لايكفى لكى ينجح الرسام أن يظهر فى صوره جمال الوجه والجسد ، إن المعجزة هى فى أن يظهر جمال الروح وفرط الشعور والإحساس ، وما كنت لأفعل ذلك بدونها .

ووجدت من نموذجى الحى .. نموذجا لزوجة ، ونموذجا لأم وأعانتنى فى كل شئ فى الحياة فلم أحس فى يوم ما أن هناك شيئاً ينقصنى .

وفى ذات يوم غبت عن الدار لعرض بعض اللوحات فى معرض المدينة ، وعدت فى اليوم التالى فراعنى ما رأيت بالدار .. لقد وجدت بها سكونا موحشاً وآثاراً لحريق شب فى جوانبها .

وأخبرتنى الخادمة وهى تبكى أن سيدتها فى مستشفى قريب ، وجن جنونى فسألتها عما حدث ، وأجابتنى فى شبه همس : إن حريقاً قد شب بالدار ، وكان الأطفال يلعبون على الشاطىء ، والأم قد جلست بجوارهم ... فأذهلتها النار المشتعلة ، ولكنها حمدت الله أن الدار ليس بها أحد إذ كان الأولاد جميعهم فى الخارج ، ولكننا رأيناها تقفز من بيننا فجأة وتندفع إلى داخل الدار صائحة :

الصور ! ! إنها عزيزة لديه كأولاده سيفجعه فقدها كما يفجعه فقدنا ! ! .

وطواها الدخان الأسود قبل أن نستطيع منعها ، ثم رأيناها تقف

فى النافذة وتقذف إلينا باللوحات الواحدة تلو الأخرى حتى أنقذتها جميعاً ، وأخيراً عادت إلينا ... ولكنها ....

وصمتت الخادمة ، فقد خنقها النحيب .

وذهبت إلى المستشفى ، وكأنى بى جنة ، ودخلت إلى حجرتها ، فإذا بها راقدة على فراشها ، ونظرت إلى وجهها .

وصمت الرجل ثم همس فى صوت مبحوح :

– لقد وجدت النموذج قد تحطم ! ؟

وأمسكت بيد الرجل فأحسست بعبرات ساخنة تتساقط من عينيه على يدى ، وارتج علىّ .. فلم أنبس ببنت شفة ، ولم أستطع أن أمنع دمعتين تترقرقان فى عينى ، وأدركت سر تلك الظلمة التى قابلت فيها المرأة .

وأخيراً استطعت التحدث فقلت للرجل بصوت يفيض بالعطف والحنان :

خفف عنك يا صاحبى .. إن نموذجك لم يتحطم ، إنه حى باق .. فقد أودى الحريق بجمال الوجه والجسد وهو جمال زائل ، ولكنه أظهر فيه جمال النفس والروح ، وهو جمال لايفنى .

★ ★ ★

الغائبان

وبدأت العجوز تتحدث وهى تحملق فى النيران كأنها تحدث نفسها ... وكانت الكلمات تخرج من فيها بطيئة وهى تروى قصة العاشقين الغائبين .

كانت الريح تهب من البحر قوية عاتية ، فتعصف بأشجار الشاطئ الكثيفة التى لفها الليل بأرديته السوداء الحالكة ... فبدت كأنها أشباح مخيفة متجهمة الوجوه .. مكفهرة الأسارير .. وكأنما اتخذت ريح البحر من الأشجار المكتئبة قيثاراً تعزف عليه لحنها الحزين ... الذى زادت رهبة الليل من وحشته ، فبات كأنه نحيب الثكلى ، أو نعيب البوم ، يوحى بالخراب والدمار !

كان كل ما فى المكان موحشاً كئيباً .. فكأن الطبيعة هناك فى حداد دائم ، وحزن مقيم .. وأقفر المكان من ساكنيه ، إلا كوخاً مهدماً خرباً بدأ فيه بصيص من ضوء مرتجف مرتعد ، كان هو كل ما يستطيع المرء رؤيته فى تلك الظلمة المدلهمة .

ومضيت فى سبيلى أتخبط بين صخور الشاطىء ، متجهاً إلى الكوخ حتى وصلت إلى بابه ، فطرقته .. وما كان بى من حاجة إلى طرقه .. فقد كان الكوخ من التداعى بحيث يستطيع الإنسان حمل جدرانه ، وترك صاحبه بلا مأوى .

وصاح بى صوت من الداخل ، خافت أجش :

أدخل !

ودخلت .. ثم اتجهت إلى صاحب الصوت ، فإذا به امرأة ضامرة شاحبة كأنها كومة من العظام لفت بغشاء من الجلد الرقيق .

سألتها فى رفق وأدب :

هل أستطيع أن أجد لديك مكاناً يقينى شر هذه الليلة الليلاء .. فقد أصاب العطب قاربى .. ولم أجد فى هذه البقعة المقفرة إلا كوخك ملجأ ألوذ به ؟

ولم تجب العجوز ، بل نظرت إلى نظرة فاحصة ، وسألتنى فى لهفة :

– أقادم أنت من البحر يابنى ؟

– نعم يا أماه .

ألم تصادفهما فى طريقك ؟

– أصادفهما ! ومن تعنين يا سيدتى ؟

– هما .. كيف لاتعرفهما ؟

وهززت رأسى فى دهش .. فقد كنت لا أفهم ماذا تقصد المرأة ، ولاحظت حيرتى ، فدعتنى إلى الجلوس ثم أفهمتنى أننى أستطيع البقاء كما أشاء ، فإن لديها فراشين خاليين يمكننى أن آوى إلى أحدهما .

وجلست أصطلى بنيران أوقدتها العجوز ... وأحسست أن المرأة قد اطمأنت إلىّ .. فبدأنا نتجاذب أطراف الحديث .

وسألتها من هما اللذان سألتنى عنهما بلهفة ؟ فنظرت إلىّ فى دهشة واستنكار ثم أجابت :

– هما كل شئ ... هما الجمال والقوة ... هما الحب والحياة لاشك أنك غريب عن هذه الناحية . فما من أحد يجهلهما .

وسكتت العجوز برهة ، ثم أطرقت برأسها وأردفت بقولها فى صوت خافت :

– لاشك أنهما هائمان .. فلم يكن يسعدهما شئ قدر قرب أحدهما من صاحبه ... ولا شك أنهما بمنجاة من ذلك الوغد الشرير .. ولكن غيبتهما قد طالت ... ترى متى يعودان ؟

وساقنى حب الاستطلاع إلى أن أستدرج العجوز ، فأجعلها تبوح بما خفى من أمرها وتروى لى قصة الغائبين الذين تتلهف شوقاً إلى عودتهما .

وبدأت العجوز تتحدث وهى تحملق فى النيران كأنها تحدث نفسها ، وخيل إلىّ أن صوتها العميق الأجش يصدر من أعماق الماضى السحيق ... وكانت الكلمات تخرج من فيها بطيئة متئدة ... وهى تروى قصة العاشقين الغائبين .

قالت العجوز :

– فى ذات ليلة ليلاء ، شديدة الشبه بهذه الليلة .. كنت أطهى

بعض الطعام للعشاء .. وكان ولدى قد أخذ يتسلى بقراءة إحدى القصص ، عندما طرق الباب طرقات خفيفة مترددة .. وقام ولدى ليرى من الطارق .. فإذا به فتى نحيل التقاطيع ، أصفر الوجه .. وقد أخذ الماء يقطر من ثيابه .

وتكلم الفتى ، فإذا به رقيق الصوت ، مرتجف النبرات وسألنا عن مكان يأوى إليه ، وكنا دائماً نتوقع هذا السؤال فقد كان الشاطئ في هذه الناحية شديد الخطورة ، متلاطم الأمواج ، وكثيراً ما تحطمت به السفن والقوارب .. ولما كان كوخنا هو أول ما يصادف القادمين من البحر ، فقد تعودنا أن نفسح دارنا لكل طالب مأوى تقذف به الأمواج .

ودخل الفتى ، وكانت آثار التعب والأعياء بادية على وجهه .. وكان صوته متهدجاً من شدة الألم والجزع ... وحاولنا أن نعرف قصته ، ولكن حديثه كان غامضاً مبهماً وكأن فى صدره سراً يخزه ، ولايجسر أن يبوح به ، وكل ما علمناه منه أنه كان فى رحلة فى أحد القوارب إلى مكان مجهول ، وأن القارب تحطم فغرق زميلاه ثم قذفته الأمواج وحده إلى الشاطئ .

ولما أصبح الصباح ، وجدنا الفتى فى حيرة من أمره ، لايعرف أين يذهب ، وأشفقنا عليه . فراودناه أن يمكث معنا حتى يستطيع أن يدبر أمره .

ومرت الأيام والفتى يعيش بيننا ، وقد عادت السكينة إلى نفسه والاطمئنان إلى قلبه .

وبدأ يستشعر الثقة بنا رويداً رويداً .. ولكن سحابة همّ كانت تعلو وجهه بين حين وآخر . فتفضح ما فى نفسه من ألم مكتوم ، وحزن مكبوت .

وفى ذات يوم ، وقد خرج ولدى للصيد .. وجلست وحيدة مع الفتى ، أخذ يبوح لى بسره العجيب ، ويكشف لى عن خبيئة نفسه .

وعلمت ، أول ما علمت من الفتى ، أنه ليس فتى ! . بل فتاة شاردة هاربة ! كانت الفتاة ابنة أحد الأثرياء .. وكان حاكم بلدتها رجلا قاسيا ظالماً باطشاً .. وضع فيه القدر كل ما فى الدنيا من سيئات ، وحرمه كل ما فيها من فضائل ، قبيح الوجه ، زرى الهيئة ... وكان إلى جانب هذا فاسقاً ، فاسداً ، يغرق ويسرف فى الشهوات .. ويشاء الحظ العاثر أن يرى الرجل الفتاة فيهيم بها ، ويرسل إليها بعض رسله يغرونها بالذهاب إليه . ولكن الفتاة أعرضت عنهم ... وهرعت إلى أبيها مرتعدة خائفة .

وعجب الأب من أمر فتاته وسألها عما بها ، وعن سر خوفها فأنبأته بما كان من أمر الحاكم ورجاله وكيف راودها عن نفسها ، وكيف أغرونها بالذهاب إليه .

وثارت ثائرة الأب ، وجن جنونه فقد كان يعلم مدى فسق

الحاكم وفجوره واستهتاره ، واندفاعه وراء شهواته ... وكيف لايصده عنها رادع من تقاليد ولا خشية من ضمير . وجزع الرجل من أن تذهب ابنته العزيزة الطيبة الأبية ضحية لنزوة من نزوات الطائش الأحمق يقضى منها حاجته ، ثم يلفها كغيرها لفظ النواة .

وصمم الأب على مقاومة الحاكم ، وأقسم بين الناس أن يصده ويردعه .

وساء الحاكم أن تصده الفتاة وأن يعصاه أبوها ، فأقسم أن ينالها بالقوة . وكان أن أمر رجاله باغتيال أبيها . ووجدت الفتاة نفسها وقد أوشكت أن تصبح لقمة سائغة فى فم الرجل ، ولم تجد أمامها من منقذ سوى الهرب من البلدة ، ومضت تدبر أمر فرارها ، فصممت على أن تتنكر فى زى فتى أو بدأت احدى خادماتها تقصى لها شعرها الذهبى الجميل ... وأحضرت أخرى ما يلزم لها من الثياب .

وتحركت إحدى المركبات فى جنح الظلام تحمل الفتاة ومعها خادمان حملتهما ما استطاعا من المال .. وبعد لحظات كان أحد القوارب يمخر بهم عباب اليم ، قاصدين إلى قرية نائية يقطنها عجوز من أقرباء الفتاة ... ولكن القارب تحطم فى الطريق ، فقذفت الأمواج بالفتاة إلى الشاطئ ، وغرق الخادمان !

واستحلفتنى الفتاة أن أكتم سرها ، وألا أذيع أمره . حتى لايتناقله الناس ، فيعلم حاكم بلدتها ... وحينئذ تكون الطامة الكبرى .

ولم يكن هناك من سبيل لإخفاء السر عن ولدى فأخبرته به ، وطلبت إليه كتمانه ، فدهش الفتى ووعد بالكتمان .

على أنه حدث بعد ذلك ما كنت أتوقعه .. فقد بدأ الهوى ينصب شباكه حولهما ، فسقطا فيها !

ومست عصا الحب السحرية كل ما فى الكوخ .. فإذا بحياتنا جميعاً تضيء وتزدهر ، وغمرتنا السعادة ، وفاضى علينا النعيم .. وكان الفتى والفتاة يملآن جوانب الدار بضحكاتهما العذبة ، ويفيضان على كل ما حولهما حبوراً ومرحاً ...

وابتسمت الطبيعة من حولنا ... فكان كل ما فيها ضاحكا باسماً .

ولكن سعادتنا لم تدم ... فقد أخذ نبأ الفتاة يتسرب إلى أهل القريه ، وبدأت الألسن تلوك قصتها .. وعرف الناس أن لدينا فتاة متنكرة فى ثياب فتى .

وبطريقة ما وصل نبؤها إلى الحاكم ... وكان قد أعياه البحث عنها ، ولم يستطع أن يعرف إلا أنها قد فرت فى هيئة فتى ... فلم يعد لديه شك فى أن الفتى الذى حدّثوه عنه هو فتاته الهاربة .. ففى ذات يوم ، وقد أوشكت الشمس على المغيب ، سمعت ولدى يطرق الباب بشدة ، وقد أقبل من القرية يلهث من التعب ، وقطرات العرق تقطر من وجهه وهو شاحب اللون .. وصاح بى والكلمات تتسابق من شفتيه فى ذعر .

– أين هي ؟ لقد رأيت بضعة رجال يقبلون على ظهور الجياد ، وقد علمت من أهل القرية أنهم يسألون عن كوخنا وأنهم يستفسرون عنها وعن أوصافها ... وقد قيل لي إنهم من رجال الحاكم ، وأخشى أن يكونوا قد أتو للقبض عليها وأخذها معهم !

وسمعت الفتاة حديثه .... فارتعدت أوصالها .. وعلت وجهها صفرة الموت ، واستطرد الفتى صائحاً :

– هلمي يا حبيبتي ! .. فإن أفضل وسيلة لتضليل هؤلاء القوم .. هو أن نأخذ قاربي ، فنختفي به في عرض البحر حتى يذهبوا .

وجذب الفتاة من ذراعها .. وأسرعا يركضان نحو الشاطئ ، وكان آخر ما سمعته منه قوله :

– سنعود إليك يا أماه ، بعد أن يذهب الرجال .. فكوني في انتظارنا .

وحضر الرجال ، وقلبوا الكوخ رأسا على عقب ... بل قلبوا القرية كلها ، ولم يتركوا شجرة ، ولا صخرة ، إلا فتشوها ... وأخيراً أصابهم اليأس ، فعادوا أدراجهم من حيث أتوا ... مهددين ومنذرين بالعودة مرة أخرى .

وبدأت أنظر عودتهما ، وشعرت بوحدة مخيفة ، وكانت الطبيعة قد أخذت تثور وتزمجر ، والبحر يرغي ويزبد ، وكل ما حولي يبعث في نفسي الرعب والهلع .

ومرّت الليلة السوداء دون أن يغمض لي جفن ، ومرّت بعدها

الليالى أشد حلكة وأكثر ظلمة ، وأنا أنتظر الغائبين ، وكرر رجال الحاكم مفاجأتهم مراراً .. فكنت أحمد الله على أن الفتى والفتاة لم يعودا بعد ، وأنهما فى مأمن من سطوة ذلك الحاكم الشرير . وهذا ما كان يبعث فى نفسى العزاء عن طول الانتظار ، ولوعة الفرقة ، فلا شك عندى أنهما الآن سعيدان ما داما سوياً ، وما داما بمنجاة من شر الحاكم .

وهنا سكتت العجوز ، وقد خيم على المكان صمت مخيف كأنه صمت القبور ... ومر برأسى حادث رأيته منذ بضعة أسابيع ... وذكرته فى تلك اللحظة ، فبعث القشعريرة فى جسدى ، وأحسست أن قلبى يكاد يقف عن دقاته .

ذكرت أنه منذ بضعة أسابيع ، ألقى البحر إلى قريتنا التى تبعد عن قرية العجوز عشرة أميال ، جثتين غريقتين ، شوههما البحر . وتذكرت أن كل ما أثار دهشتنا فى الجثتين هو أن إحداهما كانت لفتاة قد قصت شعرها ، وتزيت بزى الرجال !

وعرفت خاتمة قصة العجوز ، فنظرت إليها وهى تحملق فى النيران ... ولم أستطع أن أغالب قطرات الدموع التى تساقطت من عينى ، فأدرت وجهى إلى الناحية الأخرى ، وتمتمت بصوت خافت :

– نعم يا أماه .. لاشك أنهما سعيدان ما داما سوياً وما داما

بمنجاة من شر الحاكم ، بل من شر كل مخلوق على ظهر هذه الدنيا الحقيرة التافهة .

وهبت الريح تعزف لحنها الموحش الحزين .. ولم أعد أعجب بعدئذ أن تبدو الطبيعة فى هذا المكان فى حداد دائم وحزن مقيم ، فقد كانت الطبيعة أعلم بمصير الغائبين .

★ ★ ★

امرأة تافهة

المرأة التافهة ! .. أتراها حقاً ما زالت فى نظره تافهة ؟ لو قيست بما كانت عليه فى الليلة الماضية ، فانها تكون كل شيء ... إلا تافهة ...

فى حلكة ليل دامس شديد السواد ... تكاثفت فيه السحب فحجبت مصابيح السماء .. وأوى الناس إلى مضاجعهم ، فلم يبد فى الدور الساكنة أثر للحياة أو قبس من ضياء ، وعمت الوحشة وساد السكون فما عاد يسمع هناك إلا ريح تعصف أو ذئب يعوى .

فى خلال ذلك الليل المظلم الموحش بدأ فى أحد أبراج القلعة الشامخة ضوء خافت يلوح من إحدى النوافذ ... وكان ذلك فى أوائل القرن العاشر فى إحدى دول أوربا الوسطى ، وقد جلس الفارس الشاب فى حلته العسكرية ، وكأن تلك الريح التى تعصف خارج النافذة قد امتد عصفها إلى رأسه فبدا مشتت الأفكار شارد الذهن .

إنه لايحس برغبة فى النوم فما زالت أضواء تلك الليلة الماضية تشع فى رأسه ، وما زال ضجيجها يصطخب فى ذهنه وقام الرجل إلى النافذة ففتحها فاندفعت الريح الباردة إلى داخل الحجرة .. لقد كان فى حاجة إلى تلك الريح لتطفىء ذلك اللهب الذى يشتعل فى صدره وتهدىء تلك الثورة التى تضطرم فى جوانحه .

وجلس يستعيد فى رأسه ما رأى فى ليلته الصاخبة ... وأخذت الذكريات تمر بمخيلته فى سرعة البرق ...

كانت الليلة هى موعد السوق الكبرى التى أقيمت لجمع الأموال اللازمة لتعزيز الجيش والاكتتاب لتقوية وسائل الدفاع عن الوطن المهدد .. وإذ لم يعد سراً خافياً أن دول الشمال قد أخذت تتحفز للهجوم ، وأن الاعتداء قد بات متوقعاً بين آن وآخر .. وما هذا السكون الذى يسود الجو إلا سكون ما قبل العاصفة أو تحفز ما قبل الوثب .

وذهب الفارس الشاب – وكان قائدا لإحدى فرق الفرسان – لمشاهدة السوق .. فوجدها حافلة بالرقص والغناء ... تضج فيها الطبول ، وتصدح المزامير .. وتتلألأ أضواء المصابيح البراقة المتوهجة ، وتشع فيها أنوار العيون الفاتنة الساحرة .. وقد تكوّن من هذه ومن تلك سحر عجيب يبعث النشوة فى الرؤوس والمرح فى النفوس .

وسار يشق طريقه بين الأجساد المتراصة المتلاصقة فقد احتشد فى المكان جمع هائل من الناس حتى وصل إلى ناحية علا فيها الضحك وازداد الضجيج والهتاف . فاستطاع ببعض الجهد أن يتخذ له مقعدا وسط ذلك الجمع الذى احتشد فى شبه دائرة .. ملئت بالغيد الحسان .. والرقصات المطربات .

وكان المكان قد أعد لكى تتقدم إليه الحسان فيعرضن بعض

أمتعتهن التافهة التى تبرعن بها .. ثم تبدأ المزايدات عليها ... فيظل ثمنها يرتفع ويرتفع حتى يرسو البيع على أحد المزايدين من الأثرياء ممن يتلهفون على أن يكون لديهم من هذه الحسناء أو تلك .. أثر يتباهون به ويعتزون . وهكذا كانت ترتفع قيمة الأمتعة بمقدار فتنة صاحبتها وتعدد عشاقها .. حتى لقد بيعت بعض الأمتعة التافهة بأضعاف أضعاف الجواهر والحلى .

وتلفت الفارس ببصره بين الجموع المحتشدة ، فراعه ذلك الفيض من الجمال الذى يتدفق فى المكان . فما ذكر قط أنه قد أبصر بقدر من الفتنة قد احتشد فى مكان كما احتشد وقتئذ ... فما تلفت هنا وهناك إلا ووقع بصره على وجوه ناضرة مشرقة .. يرى فى عينها سحراً باهراً ، وفى شفاهها فتنة وإغراء .. حتى لكأن المكان حديقة فى إبان الربيع تفتح كل ما فيها من زهور ، ونضج كل مافيها من ثمار .

واستقر بصره أخيراً على وجه كان أكثر الوجوه فتنة وأشدها جاذبية .. ولم يكن الوجه غريباً عنه ، بل كان يعرفه تمام المعرفة .. فقد التقى بصاحبته بضع مرات قبل الآن .. وكان يطلق عليها مع أصحابه اسم « المرأة التافهة » .

وكانت المرأة جميلة حقاً .. فقد كانت من ذلك النوع الذى لايستطيع أن يجد فيه المرء عيباً ولا هنة ، ولو فكر الإنسان فى وضع مقياس للجمال .. لاتخذها حداً أقصى ... وجعل من كل

قطعة فيها نموذجاً لما يجب أن تكون عليه المرأة الجميلة ، فهذا الشعر الغزير المرسل على كتفيها فى بريقه الأخاذ كانما ليغشى العيون عن وجهها الضاحى ، وهاتان العينان اللتان لايقوى إنسان على أن يطيل النظر إليهما من فرط ما ينبعث منهما من سحر عجيب ، وهذا الأنف الدقيق والخدود المتوردة والشفتان اللتان يشعر الناظر إليهما أنه فى حاجة إلى مجهود خاص يقاوم به تلك الرغبة الجامحة التى تدفعه إلى أن يعدو فيلصق بهما شفتيه ، وهذا الجسد الممتلىء فى استواء وتنسيق .. كل هذا كان نموذجاً لما يجب أن يكون عليه الجمال .

ومع ذلك ، ومع كل ما اجتمع لها من جمال وفتنة .. لم يختر الرجل من الأسماء ما يطلقه عليها ... سوى « المرأة التافهة » .

ولم يكن لها عمل فى الحياة إلا أن تحيط نفسها بالعشاق والمحبين . وكانت تنظر إليهم كأنهم قطع الشطرنج أو كما ينظر الطفل إلى ملهاة تسليه أو لعبة تذهب بوقته ، وكانت تحاول الاستزادة منهم . كما يحاول الطفل أن يستزيد من عرائسه الخشبية ، وكان فى كل مرة يلقاها .. يرى عينيها كأنما تدعوانه بإلحاح ، ويبصر فى حركاتها وإشاراتها كثيراً من الإغراء ، ولكنه لم يكن ليلقى إليها شيئاً من الإهتمام ... ولم يكن ذلك منه عفة أو زهداً ... بل لأنه لم يكن يرغب فى أن تضيف إلى قائمة عشاقها عاشقاً جديداً .. ولم يكن فى إعراضه عنها بالغافل عن مبلغ ما فيها

من حسن وروعة . بل على النقيض .. كان من أكثر الناس تقديراً لذلك الحسن وتلك الروعة ، ولكنه – على حد قوله – لم يكن ليحب التوافه ، وكان يكره أن يرى وراء ذلك المظهر الخلاب باطناً أجوف .. ونفساً واهية ، وكان يحب من المرأة عاطفتها الفياضة وشعورها المتدفق .. وهذا ما كان يستطيع أن يجزم بأن « التافهة » خلو منه .

وجاء دور المرأة .. فاندفعت بين الراقصات ، تقفز وتتواثب وتتثنى دلالاً ، وفكت شريطاً رفيعاً كانت تعقص به شعرها .. وتركته ينساب على كتفيها .

وتهافت القوم على الشريط وعلا ضجيجهم بالمزايدة . وبيع الشريط بما يعادل ثلاثة أمثال ثمن أنفس ما بيع فى كل المزايدات .

ثم أخذت بعد ذلك في خلع عقد قد حلت به جيدها .. ثم خاتم .. قد زينت به إصبعها ، وسوار في معصمها .. وهكذا حتى خلعت كل ما عليها من حلى ، وقدمته فى هذا المعرض .

وانتظر الرجل أن تغادر حلبة الرقص فتعود إلى مكانها وسط العشاق والمعجبين ، ولكن المرأة لم تفعل .. بل استمرت تتثنى وتتلوى بين الراقصات .

ياللمرأة العجيبة .. ماذا تراها تنوى أن تفعل ؟ .. لقد بدأت تخلع عنها ثوبها لتعرضه للبيع .. وضج الناس بالهتاف وجن جنونهم وتملكتهم نشوة فأضحوا كالسكارى وبدأوا يتقاتلون فى سبيل

الحصول عليه .. وبيع الثوب الخارجى بما يعادل ثروة طائلة .. ووقف المرأة عارية ألا من ثيابها الداخلية الشفافة .

وسادت فترة سكون ، وكتم القوم أنفاسهم فى انتظار ما تنوى المرأة أن تفعل .. ونظرت حولها إلى العيون المتعطشة .. ثم حدقت فى الرجل بنظرة كلها فتنة وإغراء ، ومددت يدها إلى جسدها ببطء فنفضت عنه ذلك الثوب الشفاف الذى حجب وراءه أبدع ما يمكن أن تراه عين وأروع ما يمكن أن يقع عليه بصر .. وبدا صدرها فى استواء وامتلاء كأنه فاكهة ناضجة قد أثقلت غصنها النضير فغدا طيب الجنى دانى القطوف ..

وسرعان ما بيع الثوب ووقفت المرأة عارية الا من غلالة سترت نصفها الأسفل ، وأحس الرجل بالدماء تتدفق حارة فى شرايينه . وانتظر ما تنوى المرأة أن تفعل بعد .

ولم يطل انتظاره .. إذ لم تمض فترة قصيرة حتى بدأت المرأة العجيبة تعرض كل ما تبقى لها ، وتهب الشيء الوحيد الذى أضحت تمتلكه .. تهب نفسها .

وساد القوم صمت عميق ، وجلسوا كأن على رؤوسهم الطير ، ولكن السكون لم يطل .. فقد قفز الفارس من وسطهم .. واندفع إلى المنصة ، وركع أمام الجسد العارى ، وصاح بصوت يفيض بالشوق :

– إنى أعرض روحى ... ثمناً لك .

ونظرت المرأة إليه . ثم إلى من حولها . وأجابته برقة :

– إنى لك .. فإن روحك أثمن من أموالهم !

ولم يذكر ما حدث بالضبط بعد ذلك ، فقد علا الضجيج واشتد الصخب ... ولم يشعر بنفسه إلا وقد لف المرأة فى غلالتها الرقيقة وحملها بين ذراعيه واختفى بها فى الظلمة الدامسه وأحس بجسدها الدافىء يمس جسده ، وبأنفاسها تلفح وجهه .

ودهش الخدم عندما أبصروا بالفارس يعبر الأبواب وقد حمل بين يديه امرأة شبه عارية .. كأنما قد اختطفها من فراشها ، وصعد بها إلى حجرته فى سكون شامل .

واستيقظ فى الصباح ، وكأن ما مر به لم يكن سوى أضغاث أحلام .

وكان أول ما سمعه فى ذلك الصباح ... هو أن الحرب قد أعلنت ... وأنه قد يستدعى فى التو واللحظة .. فترك المرأة فى الفراش وغادر الدار .

وكان هجوم العدو ضربة مفاجئة .. فقد علموا أن جحافله تندفع بسرعة نحو المدينة وأنه لن تمضى ساعات معدودة حتى يكون الحصار قد ضرب حولها .

وقضى الرجل طيلة اليوم فى جهاد مستمر ... فلم يهدأ لحظة

واحدة .. إذ كان عليه أن يتحصن بجنوده فى إحدى القلاع ، وأن يرسل جزءاً منهم للقاء العدو لمقاومته ولتعطيله قدر المستطاع حتى تتخذ فرقته مواقعها الدفاعية .. ثم يرتد الجنود بعد ذلك مع بقية فرقتهم فى داخل القلعة .

وأقبل الظلام .. فكان كل شئ على تمام الأهبة .. واطمأن الرجل إلى سلامة خطته ، وارتدت مقدمته سالمة بعد أن عرقلت سير العدو ، وجلس هو فى حجرته فى أحد الأبراج العالية ، وقد أحس بأن التعب يكاد يقتله .

وكان أو ماقفز إلى رأسه . هو تلك المرأة التى تركها فى فراشه .

« المرأة التافهة » ! ! ... أتراها حقاً ما زالت فى نظره تافهة ! ! ؟ لو قيست بما كانت عليه فى الليلة الماضية فإنها تكون كل شئ .. إلا تافهة .. لقد كانت حارة .. فياضة بالشعور .. فاتنة .. ساحرة .. مرهفة الحس .

ومع ذلك فقد أحس فى نفسه بالخوف منها .. لقد أقلقه ذلك الشعور الجارف الذى يحس به نحوها ، وأفزعه ذلك الشك الذى يعتمل فى قلبه .. إنه لايطمئن إليها ... إنها امرأة ليلة .. لا عاشقة عمر .. إنها لن تمنحه دائماً .. ذلك الإحساس المرهف الذى أعطته إياه لأنها ستعود كما كانت دمية بين عشاقها والمعجبين بها .

وأخيرا صمم على ألا يحاول لقاءها ، وأن ينسى ما كان من أمره وأمرها .. ويقتل فى نفسه ذلك الحنين إليها .

وقام إلى فراشه ، ولكن الحارس طرق بابه وأخبره أن امرأة تريده .. ولم تمض لحظات حتى دلفت المرأة إلى الحجرة .

ومرّت الأيام .. والرجل غريق فى الهوى ، وأشعرته المرأة أنه لم يخطئ فى شئ كما أخطأ فى تسميتها « التافهة » ....

واستمر العدو فى حصار المدينة ، ولكن هجومه قد رد فاشلا .. وباءت محاولته فى الوصول إلى المدينة بالخيبة والخذلان .. حتى وصلت الأنباء ذات يوم بأنه استطاع التسرب من ناحية القلعة التى يدافع عنها الرجل .. وحشد الجنود فى تلك الناحية ، ووصلت الامدادات من كل حدب وصوب .. حتى أمكن أخيراً إيقاف الهجوم ، وأسر كل الجنود الذين استطاعوا التسرب إلى داخل المدينة .

وفتش الأسرى .. وبدأ استجوابهم لمعرفة كيف استطاعوا التوصل إلى سر تلك النقطة الضعيفة التى تسربوا منها ...

وأخيراً وجد مع قائدهم .. صورة من مواقع الدفاع عن المدينة ! .

ياللهول .. لقد حدثت خيانة ، وممن ! من قائد القلعة نفسه .... فقد كانت صورة الخطة ... هى نفسها التى كان يحتفظ بها فى حجرته الخاصة .

وسيق الرجل إلى المحاكمة .. وهو فى ذهول شديد ، ترى كيف انتقلت الأوراق من حجرته إلى أيدى الأعداء ؟

وساوره شك سرعان ما أبعده عن خاطره .. أيمكن أن تكون هى التى دفعت بالأوراق إلى أعدائه .. ولكن ما صالحها فى ذلك ، وماذا يعود عليها مثل هذا العمل ؟ .. لا .. لايمكن أن تكون هى .

وكانت التهمة هى الخيانة العظمى ، وكان مصير الرجل المعروف هو الإعدام ، ولكن لم تمض لحظات على بدء المحاكمة .. حتى فتح الباب ودخلت منه المرأة .

كانت ساكنة هادئة .. ولم يكن يبدو على وجهها أى نوع من المشاعر والإحساسات ، ولم تزد على أن قالت ببساطة :

– إنى أنا التى دفعت بالأوراق إلى أيدى الأعداء .. لقد كنت أهوى قائدهم الذى أسر ، وكنت أتصل به سراً . وقد سألنى الأوراق فدفعت بها إليه .

وأحس الرجل بطعنة شديدة .. لقد كان خيراً له أن يعدم .. من أن يسمع مثل ذلك القول الذى قالت .. لقد باعته المرأة بثمن بخس .. لقد كان أحمق ... حيث اندفع فى حبها ، وكان أحمق حين ظنها لم تعد بعد « تافهة » .

وأطلق سراح الرجل ولكنه جرد من رتبته .. وسيقت المرأة للموت، لتلقى جزاءها .

★ ★ ★

وفى ظلمة الليل خرج الرجل من القلعة مطاطىء الهامة موجع القلب .. محطم الجسد .. وبدا له فى الظلام جسد المرأة يتأرجح ويهتز ، وقد تدلى فى الفضاء بعد أن أحيطت رقبته الجميلة بالحبل الخشن .

وأحس بيأس شديد وحزن بالغ .

لشد ما خذلته المرأة وبددت إيمانه بالحياة وبكل ما فيها .

لقد بددت إيمانه فى نفسه .. وفى الوفاء ، وفى الخير . وفى كل شعور صادق عميق .

لقد خدعته خدعة كبرى .. بأنه صدق حقاً أنها تحبه . وإنها كما قالت له ذات مرة لاتتمنى أكثر من أن تضحى بنفسها فى سبيله .

الأحمق .. المغرور ! !

لقد صدقتها وقتذاك .

ولكنه كان معذوراً .. فقد كان حديثها ملؤه الحرارة والإخلاص .. ومع ذلك فلم تمض ليلة حتى ضحت به وبوطنها وبكل مبدأ وخلق .. ومن أجل غريب تدعى أنها قد أحبته .

وملأت المرارة نفسه وهمس فى سخرية وهو ينظر إلى الجسد المعلق المتأرجح فى الظلمة :

– أحبته ! ! ... أنت تحبين .. أيتها الشيطانة الكافرة إن

طبيعتك هى الخيانة وديدنك الخديعة . إن الحب شعور أسمى من أن تحسى به .

وألقى على الجسد نظرة أخيرة ثم أشاح بعينيه فى ازدراء وعاود السير فى تثاقل وبطء .

ولاح له السجن الذى ضم بين جدرانه أسرى العدو . وبدا له فى الظلمة وقد تعالت جدرانه السوداء كأنها شبح مخيف ...

ولم يكد يتقدم بضع خطوات حتى سمع صوتاً وراء قضبان إحدى النوافذ وأبصر بعض الأسرى يطلون على الساحة ويرقبون الجسد المعلق .

وسمع أحدهم يهمس للآخر وهو يشير إلى الجسد :

– هذه المرأة لاشك مجنونة فما أبصرتها قط قبل اليوم ، ومع ذلك فقد أدعت أنى على صلة بها وأنها دفعت إلىّ بالأوراق لأنها تهوانى ... مع أنى أجزم لك بأنى حصلت عليها من أحد الخدم نظير أجر باهظ ... ياللحمقاء ؟ . لقد ألقت بنفسها إلى التهلكة دون أى سبب .

ولم يكد صاحبنا يسمع حديث الرجل حتى كاد يصعق ، وتسمر فى مكانه .

أيمكن أن يكون هذا معقولا ؟ .. أيمكن أن تكون المرأة قد ضحت بنفسها من أجله ؟ .. أيمكن أن تكون قد القت بنفسها إلى التهلكة .. لتنقذه من هذه التهلكة ؟!

أيمكن حقاً أن تكون صدقت وعدها وضحت بنفسها فى سبيله .

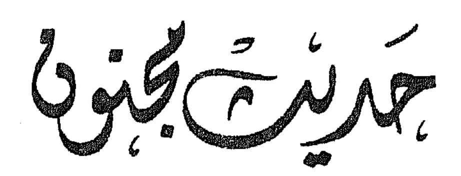
وأحس الرجل أنه على شوك أن يجن .

وتقدم فى سكون نحو ذلك الجسد المعلق فى الهواء حتى وصل إليه وقطع الحبل ، وأمسك بالجسد يحتضنه بين ذراعيه .

أهذه هى المرأة « التافهة » ... أم أن الحياة من بعدها هى التافهة ؟

وشوهد الرجل يحفر بعد ذلك قبراً ليرقد الجسد فيه ، وعجب الناس لما اصابه من فجيعة على المرأة الخائنة .. وأصابته جنة فلم يفارق القبر حتى ثوى فيه وكتب الناس على القبر : « هنا يرقد الرجل المجنون .. والمرأة التافهة » . يالهم من تافهين ! !

★ ★ ★



سأحبك حتى أفقدك .. سأحبك ولو ليوم أو لساعة .. فخير لى أن أعيش ساعة بحب من أن أعيش دهراً بغير حب ...

مجنــون

هذه القصة .. مجنون فريد فى نوعه .. فلا هو بشاعر يهيم فى البيداء .. ولا فنان يعيش بجسد فى الأرض ورأس في السماء ، بل هو رجل لايكاد يختلف كثيراً عن غيره من عقلاء الناس .. إذ ليس به من مظاهر الشذوذ شئ .. بل تراه على أتم ما يكون من الهدوء والسكون والحكمة والروية .

رأيته أول مرة ، وقد جلس على صخرة من صخور الشاطئ قبيل الغروب .. ونظرت إليه فرأيته قد أمسك بصندوق صغير ، وأخرج منه شيئاً استطعت أن أميز فيه جدائل طويله من شعر كأنه خيوط الذهب ، ثم وضعها برفق على ركبتيه وأخذ يمشطها بعناية بالغة ، ثم رفعها بين يديه وضمها بشوق ودفن فيها وجهه ، وسادت فترة صمت عجيبة . وراح الرجل فى شبه غيبوبة ، حتى شعرت برجفة خوف تسرى فى جسدى ، فانتفضت واقفاً ... وأحس الرجل بحركتى ، فأعاد الشعر ببطء إلى الصندوق ، ونهض من مكانه واختفى فى الظلمة .

ورأيت الرجل بعد ذلك مرات عديدة فى نفس المكان على نفس

الصخرة ، وتكرر منه فى كل مرة ما رأيته فى المرة الأولى ، حتى دفعنى حب الاستطلاع إلى السؤال عنه .. فقيل لى إنه مجنون .

وفى ذات مرة غامرت بالجلوس إليه ومجاذبته أطراف الحديث ، ودفعنى إلى ذلك ما رأيته من شدة هدوئه وسكينته واعتقادى بأن جنونه لايمكن أن يكون من ذلك النوع الخطر الذى يخشى المرء شره .. وكان حديثه إلىّ حديث رجل عاقل .. فكدت أنسى ما توهمته من جنونه ، حتى وجدته يقف فجأة ثم يتركنى إلى صخرة بعيدة ، ويبدأ فى إخراج الشعر وتمشيطه .

ومرت الأيام فبدأ الرجل يأنس إلى حتى لم يعد لديه ما يمنع من أن يخرج الشعر أمامى ويحنو عليه كما يحنو على معشوقته ، فحاولت عندئذ أن أستدرجه ليقص على قصته ويفضى إلى بما خفى من أمره ، ولكنه كان يلوذ بالصمت ويستغرق فى تفكير عميق .

وذات يوم اشتد ريحه ، وعلت أنواؤه ، جلست مع الرجل أرقب زبد البحر يعلو الصخور فيصيبنا رذاذه بين حين وآخر ، وفجأة أحسست بيد الرجل تقبض بعنف على كتفى ، وسمعته يهتف بصوت أجش :

– انظر ! إنها هى .. ألا ترى ذلك الشىء الذى يطفو على سطح الماء ؟ . إنه رأسها .. وذلك الشعر شعرها فإنى لا أخطئه ، ولو كانت بين آلاف النساء .

ونظرت إلى حيث أشار ، فإذا بشىء يطفو على سطح الماء ،

أغلب ظني أنه بعض عشب البحر ... ولم أدر كيف أجيب الرجل ، وخشيت أن أوقفه على وهمه ، فيلقى بنفسه فى اليم لانقاذ ذلك الشئ الذى ظنه رأس امرأة ، ولكنه لم يترك لى فرصة الإجابة ، فقد رأيت ذراعه تسقط إلى جانبه وسمعت منه آهة خيبة وخذلان ، ثم قال فى أنين موجع :

- ياللحمق ... لقد نسيت أنها قد أضحت بلا شعر .. إن شعرها هنا فى هذا الصندوق ، وهو كل ما استطعت أن أنقذه منها ... يا للذاكرة الخائنة .. يخيل إلى أننى قد أصبحت مجنوناً حقاً ... إذ كيف نسيت أنها قد أصبحت الآن رمة فى قاع البحر !

وأحسست أن بالرجل رغبة فى أن يقذف ببعض تلك الجمرات التى تتأجج فى صدره ... لقد كان به - على غير عادة - حنين إلى الحديث ، ولهفة على أن ينبش حطام ذكريات راقدة فى أحداثها ، ولم أجد خيراً من أن ادعه يسترسل فى حديثه ، وقلت له أستحثه :

- خفف عن نفسك يا صاحبى .. فكلنا مصيرنا إلى رمة .. إما بقاع البحر أو ببطن الأرض ، حدثنى عن صاحبتك .. كيف كانت ؟ وكيف صارت ؟

وصمت الرجل برهة ، ثم قال كمن يحدث نفسه :

- كيف كانت ! ! وكيف صارت ! ! لو بحثنا عنها هنا (وأشار إلى صدره) لوجدناها قد صارت إلى خير مما كانت .

ففى كل يوم يخلع عليها القلب حلة فاتنة من حنينه وأشواقه .. ولو بحثنا عنها هنا (وأشار إلى جوف الماء) لوجدنا قد صارت كأنها ما كانت .

وسادت فترة سكون أخرى .. ثم تمتم بصوت خافت :

– دعنى أولا أصفها لك ، فمن العبث أن أروى لك قصتها دون أن يكون لها في رأسك صورة واضحة .. وإلا أتهمتنى بالجنون كما فعل غيرك من العقلاء .

رأيتها أول مرة صبية لوحتها الشمس ، فتركت فى وجهها سمرة عجيبة فاتنة ، زادتها فتنة عينان خضروان كأنهما عينا هر ، ولو لم أر سوى وجهها ، لما تخيلت إلا أنها طفلة لا تعدو العاشرة ، ولكن جسدها كان يكذب وجهها ... فذلك الصدر الناهد ، وتلك السيقان الملفوفة ؛ كانت تقسم أن صاحبتها امرأة مكتملة الأنوثة ، أما الشئ الرائع حقاً فكان شعرها .

ولست أدرى ما إذا كان بشعرها شئ عجيب حقاً .. أم أن افتتانى به كان نوعاً من شذوذ الهوى .. وجنون العشاق .. ولكنى أؤكد لك أنى ما رأيته مرة إلا ومددت يدى أعبث فيه وأرفعه إلى وجهى ، فأتحسسه بشفتى وأشمه بأنفى .

كانت الصبية تطلقه على طبيعته ينساب على كتفها ويستقر على ظهرها فى تحرر وانطلاق ، بلا جدائل ولا عقص ولا تمشيط ولا

أى نوع من أنواع العناية .. ولكنه كان يتدفق من منابته كينبوع من الذهب دافىء حنون .

ولست أشك فى أن الصبية كانت مخلوقة عجيبة بين المخلوقات أو أقل إنها كانت بين البشر – تسبح وحدها – فى التفكير والشعور والتكوين .. لا فى الخلْقِ ولا فى الخُلُقْ .

كانت أشبه بالحيوان البرى المستوحش .. كثير الانطلاق فى الشاطىء والشرود فى البحر ... وكانت دائمة التوهم أنها تسمع أصواتاً تستغيث بها من وراء الأمواج .

وكان المعروف بين قوم الفتاة أن بعقلها شذوذاً يدفعها دائما إلى البحر .. ويخيل لى أنه لولا ذلك الشذوذ ، ما قدر لى أن ألتقى بها فى هذه الحياة .. ولكنت أنا الذى قد أصبح الآن رمة فى قاع البحر .

وإنى لأرانى الآن فى ذلك الكوخ المظلم على شاطىء البحر .. وقد بدت الفتاة فى أقصاه على ضوء ذبالة خافتة ، يحتضر فيها الضوء .. وأخذت أحقق البصر فيما حوالى ، إذ أدهشنى وجودى فى ذلك المكان ... وخيل إلىّ أنى فقدت الذاكرة ؛ فقد كنت لا أعى شيئاً مما حولى .. ولا أكاد أذكر أى ريح هوجاء قذفت بى إلى هذا الكوخ المظلم المتداعى ، ولا من تكون الفتاة القابعة هناك بجوار الذبالة .

على أنى ما لبثت أن ذكرت كيف بدأنا الرحيل وكيف تراكمت

القوارب الصغيرة على الشاطئ كى تنقلنا إلى السفن الرابضة فى عرض البحر ؛ كنت أعمل فى ذلك الوقت بحاراً فى إحدى السفن التجارية ، وكنا على وشك القيام برحلة بعيدة تصحبنا بضع سفن ضخمة ، مليئة بالبضائع والأموال.. وكانت المرة الأولى التى نغامر فيها برحلة طويلة كتلك الرحلة ... وإنى لأذكر منظر الشاطئ ، وقد ازدحم بالنسوة يودعننا بأعين دامعة .. وقد احتضنت كل منهن زوجها أو أخاها أو أباها ، ووقفت أنا ممسكا بزوجتى المحبوبة ، وقد تعلقت بى فى شوق ولهفة .

وتحركت السفن ، وأخذ الشاطئ يضمحل ، حتى أمحى من أبصارنا ، وسرنا فى عرض البحر تمخر بنا السفن عباب اليم ، حتى فوجئنا ذات يوم بزوبعة عاتية .

فى غمضة عين ، خيل إلى أن البحر قد زلزل زلزاله ، وأخرج أثقاله . ورأيت سفينتنا تتمايل ، وتتأرجح ، ثم تأخذ فى الهبوط شيئاً فشيئاً ، وملىء الجو بدخان أسود قاتم .. وأخذت قوارب النجاة تحتشد بالبحارة ، وبدت على سطح الماء الرؤوس الطافية .. وبقع الدم الحمراء والزيت الأسود وتعلقت أنا بلوح من ألواح .. السفينة التى ابتلعها اليم وبدأت الأمواج تدفعنى بعيداً ، وقد تعلقت متشبثاً باللوح كأنه قد صار قطعة من جسدى وكأن روحى قد انتقلت إليه .

وأخيراً ، وهنت قواى ، وهدنى التعب ، وكان الظلام قد حل فاستسلمت لليأس وأحسست باللوح يفلت من بين أصابعى

المكدودة ، ولكنى سمعت صوت جسم يتحرك فى الماء ، وأرهفت السمع فإذا بالصوت يقترب شيئاً فشيئا حتى تبينت فيه شبحاً يقبل نحوى ، ولم أحس بعد ذلك إلا وأنا فى ذلك الكوخ المهدم البالى .

تذكرت ذلك كله وأنا راقد فى الظلمة ، وهممت بالقيام فأحست الفتاة بحركتى ، فأسرعت نحوى وأمرتنى بالرقاد ، وسألتنى عما أطلب ، فسألتها بدورى عمن تكون ؟ . وعمن أنقذنى من جوف البحر وأحضرنى إلى هذا المكان ؟

وعلمت منها أنها تسكن الكوخ مع جدها العجوز ، وأنها سمعت صوت العاصفة وأحست بدافع خفى يدفعها إلى الخروج إلى الشاطئ فتسللت من الكوخ وأخذت تتلمس طريقها وسط الريح العاصفة ، حتى بلغت صخور الشاطىء ، وأبصرت الأمواج تدفع أمامها جسداً ... قد تعلق بأحد الألواح وأنه يوشك أن يهوى فى قاع أليم ، فلم تتردد فى أن تقذف بنفسها بين الأمواج ، وظلت تجاهد حتى أخرجته وحملته إلى الكوخ بمساعدة جدها .

ورأيت الفتاة تبتسم ... وأمسكت يدى برقة وأخبرتنى أنها سعيدة بإنقاذى .

ومرت بضعة أيام عدت فى خلالها إلى كامل قواى ، وكانت الفتاة لاتفارقنى لحظة واحدة .

وهنا أحب أن أوضح لك امرأ لابد من إيضاحه .

لقد أخبرتك أنني متزوج ، وأزيد على ذلك أن بيني وبين زوجتي حباً عميقاً ، وأنني كنت أرى دائماً أن من الخير للمرء أن يكون في هذه الحياة وفياً أميناً ، وعلى ذلك فلم يكن هناك مايدفعني قط لأن أحاول الزج بنفسي في واقعة غرام بيني وبين الفتاة ، وكنت أحاول دائماً أن أدخل في روعها وروع نفسي أن الفارق بين عمرينا شاسع ، وأن مكاننا من بعض مكان الأب من الإبنة .

ولكنني رغم كل ذلك ، وقعت في حبها ! ! وأصبت به تماماً ، كما يصاب المرء بمرض .. ولو كان لنا أن نلوم المحموم ، لأنه أصيب بحمى .. فلك أن تلومني لأنني أصبت بحب الفتاة وأنا رجل متزوج .

وجلست الفتاة ذات مرة تحدثني عن آمالها وأمانيها .. وقد وضعت كفها الصغير بين كفي .. وتهدل شعرها الذهبي على كتفيها وذراعيها .. وأحسست بجسدها يقترب مني . ثم وضعت يديها على كتفي ، ورأيت عينيها الخضراوين تتطلعان إليّ بنظرات بعثت الدم حاراً في عروقي .

وتمالكت نفسي فأبعدتها عني ، ولكنها عادت تقترب حتى شعرت بحرارة أنفاسها تلفح وجهي .. فحاولت أن أكتفي بمس جبينها بفمي حتى تكون قبلتي قبلة أب لإبنته .. ولكن الفتاة دفعت جبينها للخلف ... وسرعان ما رفعت شفتيها فألصقتهما بشفتي .. وأحسست بذراعيها الصغيرتين تحيطان بي .

ولا حاجة بى إلى أن أخبرك أنى رجل مجرب لأمور الحب ، وأن هذه القبلة لم تكن أول قبلة أذوقها من امرأة . ولكنى أقول الحق إنها كانت أعذب قبلة ذاقتها شفتاى ... لقد ملأتنى نشوة ، فرأيتنى أنسى كل شئ ، وأمسك بالفتاة بين ذراعى لأغمر وجهها بالقبل .

وأخيراً أفقنا لنفسينا .. فرأيت ذلك الحب الذى كنت أخشاه .. ذلك الحب الذى لاطائل من ورائه قد وقع .. وأخبرتها أنه لا أمل فى حبنا لأننا لابد سنفترق قريباً .. فسأعود فى أول سفينة إلى زوجتى ، وخير لها ولى أن تكف عن حب رجل متزوج .

ورأيت الفتاة تنظر إلىّ وتضحك فى سخرية ثم تقول :

— ماذا تعنى بمتزوج .. أتعنى هذه العقود التى يكتبها الإنسان فيربط بها رجل بامرأة مدى الحياة ؟ ياللسخف ! ! أتظن هذه العقود تمنعنى من أن أحبك أو تمنعك من أن تحبنى ؟ .. لا ... لا ... سأحبك حتى أفقدك ... سأحبك ولو ليوم ، أو لساعة .. فخير لى أن أعيش ساعة بحب ، من أن أعيش دهراً بلا حب .

ورأيت الفتاة على حق ... وعجبت للناس لِمَ لا يعجبون من أن يكره المرء مئات من الناس ، ويحتقر مئات منهم ، ويحترم مئات .. ثم يدهشون أن يحب المرء أكثر من واحدة ! ! إنى أحب زوجتى .. ولم يمنعنى هذا من أن أحب الفتاة .. ولكن هل تقر أوضاع الحياة أمراً كهذا ؟ وهل تقبل إحداهما مشاركة الآخرى

لها فى حبها ؟ .. لا أظن لقد كان علىّ أن أختار واحدة .. إما الزوجة أو الحبيبة .. وكان العقل فى جانب الأولى .

وبعد بضعة أيام كنا فيها مثلا لعاشقين .. أتت إحدى السفن فأنبأت الفتاة أننى راحل ، وبدا عليها حزن عميق ومرارة أليمة .. ورأيتها تصمت لحظة ثم تنبئنى أنها كانت تتوقع هذه اللحظة .. وأنها لا تستطيع أن تسلبنى من زوجتى ولابد لها أن تحتمل مرارة الفرقة ، ولكنها عادت ترجونى أن آخذها معى فى السفينة حتى نتمتع بالهوى مدة أطول ، وترددت برهة شعرت فى أثنائها بالحيرة ، ولكن جنون الحب دفعنى لإجابة مطلبها .. وعلى سطح السفينة أذاقتنى الفتاة أعذب كؤوس الهوى ... وأخذنا فى الاقتراب من بلدتى .. فعاد صوت العقل يلح ويعلو ، وبدا علىّ الوجوم ، والضيق وحرت ماذا أصنع بالفتاة ؟ ولكنها أخبرتنى ضاحكة ألاّ أحمل لها هماً فهى تعرف أين تذهب .

فى ذات يوم وقبيل الفجر استيقظت قلقاً . وبحثت عن الفتاة فلم أجدها .. وأخيرا عثرت عليها عند مقدم السفينة وقد أوشكت أن تقذف بنفسها فى الماء .

ولم أستطع أن أمنعها .. فقد وصلت متأخراً بعد أن سقطت فى الماء فاندفعت وراءها وألقيت بنفسى فى اليم كالمجنون وأخذت أسبح خلفها .. ولكنها كانت تمعن فى الابتعاد إلى أن أصابنا

الكلل ، ورأيتها على وشك أن تغرق .. فجاهدت حتى استطعت أخيرا أن أمسك بها وهى فاقدة الوعى .

ودفعتها أمامى حتى رأيت أحد قوارب النجاة ، فتعلقت به ثم رفعناها إلى السفينة .

وعلى ظهر السفينة .. التفت حولى البحارة ليقوموا بإسعافها . ولكن لم يكن هناك فائدة ، فقد كانت جثة هامدة .

وكان بى وقتئذ شبه ذهول ، إذ كنت أعلم أنهم سيعيدون الجثة مرة أخرى إلى الماء ، فلم أصدق أن الفتاة العزيزة ستذهب بلا رجعة .. وتغيب فى قاع اليم وتضيع بلا أثر ، ووجدتنى بلا تفكير ولا إرادة ، أسرع إلى الجثة فأقص شعرها ، وأعدو به إلى حجرتى ، لقد أحسست منه بعض السلوى والعزاء ... وشىء خير من لاشىء .

ونزلت إلى الشاطىء .. وقد أخفيت الشعر فى ذلك الصندوق الخشبى خشية أن تراه زوجتى فتسألنى عن سره ، وقد تعصف بها الغيرة فتقذف به إلى اليم ، وتحرمنى منه .

سرت إلى دارى شارد الذهن حزيناً واجماً ، ولكنى دهشت ، إذ لم أجد زوجتى ...بل وجدت الدار خاوية مقفرة ... وسألت عنها ، فلم يجبنى أحد ، وأخيرا تطوع بعض القوم فأنبأنى بالحقيقة .. وأخبرنى أنها غادرت البلدة مع رجل أحبها وأحبته ، بعد أن سمعت بغرق السفينة ويئست من عودتى .

وأقول لك الحق أننى لم أحزن .. ولم أغضب .. بل شعرت بالكثير من الراحة .. حين أحسست أنى أستطيع أن أخلو إلى الشعر وأتمتع به دون أن يحاسبنى أحد ، أو يضايقنى مخلوق .. لقد خيل إلّى أن الفتاه ستكون قريرة العين فى قاع البحر لقد أصبحت لها وحدها ، ويمكننى أن أضم شعرها وأقبله دون أن أخشى شيئاً .

وصمت الرجل برهة ثم رفع إلّى رأسه متسائلا :

– أترانى مجنوناً كما يرانى الناس ؟

– لو كنت مجنوناً .. فأكثر منك جنوناً ... ذلك القدر الذى يحركنا فى هذه الحياة .

* * *

عبادة القلوب

إن العبادة لاتتقيد بشرط ، ولا تتطلب رداً ، إنها هي نفسها رد لنعمة سابقة ، أنى أعبد الله الذى وهبنى الحياة ، وأعبدها لأنها أشعرتنى بالحياة ، وجعلت لها عندى قيمة ومعنى .

ممشوقة القد .. هيفاء . حوراء . سرق النسيم من خطرتها خفته ، واستمد الفجر الرطيب من وجهها نوره . ونشر الورد من غبقها شذاه .

أجمل ما فيها شفتان مضمومتان يقطر منهما السحر ويفيض منهما الشهد ..

لها قصة ..

أأقصها عليكم ؟ . أم تسمعونها من شفتيها ؟ !

من شفتيها ؟ ..

حسن .. هاكم إياها .. « القصة ، لا الشفتان » !

★ ★ ★

كان الليل ساجياً والقمر يتبوأ أريكة السماء ، ويطل على الكائنات من عل .. وقد بدا وجه الأرض من فرط صمته كأنه قد خلا من الحياة ، وبدت الحديقة وقد ران عليها سكون يكاد يسمع فيه تنفس الورق ، وهمس النسيم .

وكنت قد وقفت فى شرفة القصر هاربة من صخب المدعوين ونقيق ألسنتهم .. متسللة إلى الشرفة النائية المطلة على الناحية الخلفية من الحديقة المترامية الأطراف ... المتكاثفة الأشجار .. ووقفت متكئة على حافة الشرفة .. أرقب قمم الشجر الغارق فى الضوء الفضى وظلاله الباهتة الشاحبة الصرعى على الأرض .. وقد نكوّن من الضوء والظلال خليط من المرئيات المبهمة المتشابكة .. مغرقة فى صمت عميق ... كان جمال الكون ليلتذاك .. جمالا عجيباً . جمالا غامضاً هادئاً ينساب إلى النفس فى لين حتى يأسرها فإذا بالإنسان قد أصبح يحس بأنه جزء من ذلك الخليط الساكن من الظلال المبهمة والأضواء الباهتة .

وبين ذلك السكون السائد والصمت المخيم وصل إلى سمعى فجأة صوت أغصان تنكسر كأن أقداماً وطأتها .. ثم عاد السكون يضرب أطنابه مرة أخرى .. وعودنى الهدوء الذى بدده تكسر الأغصان .. وأقنعت نفسى بأن مصدر الصوت لايعدو أن يكون قطة تتجول فى الحديقة .

ولكنى مرة ثانية عدت أرهف السمع .. ووجدت أعصابى المتراخية تنشط وتتحفز !.

لقد عاد الصوت مرة أخرى .. عاد بطريقة استطعت أن أجزم معها أن الأقدام المتحركة ليست أقدام قطة . بل أقدام إنسان يتسلل ببطء وحرص .. وازددت أرهافاً ، وأخذت أحدق فى الناحية التى

خلت الصوت قد صدر منها . فبدا لى شبح يتحرك بين الظلام فى حذر وخشية .

كانت طريقة حركته تبعث فى النفس الريبة ، وتثير الشكوك ، فما كان لإنسان أن يتخذ تلك المشية المتسللة فى جنح الظلام ويسير بتلك الهيئة الوجلة المضطربة والصورة الحذرة الخائفة .. إلا إذا كان يضمر شراً . وينوى سوءا !

وبدا لى فى أول الأمر أنه قد يكون أحد الخدم أو الحراس تسلل ليسرق شيئاً ، أو ليهرب بشئ أخفاه فى الحديقة ، أو ليلتقى مع إحدى الخادمات أو الوصيفات فى موعد غرام !

ولكن لم يطل بى ذلك الظن حتى رأيت شبحاً آخر يتابعه بنفس الحذر والخطوات المتسللة . واستطعت أن أميز الشبحين عندما وقع عليهما ضوء القمر فى لحظة خاطفة وهما يتسللان من ظل إلى ظل فأدهشنى أن أجدهما ضابطين بزيهما الرسمى الأبيض المزركش وحذائيهما الطويلين اللامعين .

ووقفت أرمقهما مشدوهة حيرى .. وقد تواريت خلف أحد أعمدة الشرفة .. وأمسكت بأنفاسى من فرط الدهش والعجب . وأنا أسائل نفسى : ماذا يدعو ضابطين مثلهما إلى التسلل إلى قصر الحاكم فى ذلك الوقت من الليل ؟

وأخيرا استقر بهما المقام فى مكان قريب أسفل الشرفة بحيث

أضحى فى أستطاعتى أن أسمع تردد أنفاسهما المتلاحقة فى ذلك السكون المخيم .

ولم يكن من عادتى أن أسترق السمع . ولكن أى أنسانى فى مكانى – مهما بلغ به عدم الأكتراث وعدم الرغبة فى الاستطلاع – كان لابد أن يرهف سمعه ويلتقط ذلك الحوار الذى دار بينهما فيما يشبه الهمس !

بدأ أولهما الحديث بتنهيدة راحة واستقرار قائلا :

– حمداً لله .. إن كل شئ يسير على ما يرام ... !

– أجل .. الحمد لله الذى يسر الأمر وأزال الطوارئ والعقبات .. وجنبنا الأخطاء .. إن أى شئ بسيط كان يمكن أن يودى بنا ، ويضيع علينا كل ذلك الجهد الذى بذل .

– لم تبق إلا دقائق حتى نشعل اللغم ونعطى الإشارة بالهجوم ...

– دقائق فقط ؟ لقد ظننت أنه مازال أمامنا متسع مع الوقت .

– الساعة الثانيه عشرة إلا ربع .. وموعدنا منتصف الليل ، أى لم يبق أمامنا بسوى ربع ساعة ، نسترد فيه أنفاسنا .

ولكنا لسنا مقيدين بالثانية عشرة بالضبط ... إن الأمر متروك لتقديرنا ، وأعتقد أنه ما زال أمامنا فسحة من الوقت ، ثم لاتنس أن ضيوف الحاكم لم يغادروا القصر بعد .

– وما لنا وضيوف الحاكم ؟

– أو قد بلغنا من الجبن والنذالة نحن ضباط الانقلاب وقواد الثورة ، وأصحاب المثل العليا ، إلى حد مهاجمة القصر وهو يزخر بالفتيات والنساء ... لا . لا . لسنا نحن الذين نفعل ذلك ... !

– ولكننا لا نستطيع الانتظار حتى ينصرفوا ... فأنت تعلم قيمة الوقت لدينا .. إننا إذا انتظرنا بعد الثانية عشرة فسنعرض حياتنا للخطر .. وخطتنا للفشل .. إن خطتنا يتوقف نجاحها على أن نبدأ الهجوم قبل أن تصل فرقة الحرس ...!

– إن الوقت لم يحن بعد لوصول فرقة الحرس ... وإبلاغ نبأ المؤامرة إلى الحاكم .

لن يتأخر ذلك عن الساعة الواحدة .

ومن قال لك أننا سننتظر إلى ذلك الحين ؟ إن الضيوف آخذون فى الانصراف . وأعتقد أن انصرافهم لن يتجاوز نصف الساعة ... أى أننا نستطيع أن نبدأ الهجوم فى الثانية عشرة والنصف على أكثر تقدير .. وسيكون كل شئ قد انتهى ونكون قد استولينا على قلعة القصر قبل وصول فرقة الحرس .

– ولكن هب أن المدعوين قد تأخروا أكثر من ذلك ؟

– لا أظن .. صه . إنى أسمع أصواتاً على السلم الآخر انظر إلى الباب . إن البعض قد أخذ فى الانصراف فعلا . إنى ألمح بينهم بعض النساء يرفلن فى ثياب السهرة .. ولكنى لا أستطيع تمييزها من بينهن . إنها لاشك ما زالت موجودة داخل القصر .. !

– من هى ؟

– الأميرة .

وسمعته ينطق باسمى !

– دعنا من الضيوف ومن الأميرة . إن الوقت قد أزف وإنى شديد القلق ، ومن الجنون أن نعلق مصيرنا بحياة هؤلاء الضيوف . أو حياة الأميرة :

– بل إن كل شيء عندى معلق بحياتها .

ماذا تقول ؟

– أقول إننا لن ننسف القصر ولن نبدأ الهجوم . حتى تخرج آمنة .

– من هى ؟ الأميرة ؟ !

– أجل . الأميرة .. لقيت الردى والحانى الله . إذا مددت يدى إليها بسوء . أو تسببت لها فى ضرر أو مكروه .

أتحبها ؟

– أعبدها .. وأعبد ذرات الثرى التى تطأها أقدامها ، أعبد النسمة التى تمر بها فتختلط بأنفسها .. أعبد النجوم التى ترقبها والشمس التى تدفئها والظل الذى يقيها ، أعبدها وأعبد من أجلها الحياة ، أعبدها وأعبد نفسى التى تعبدها .

ولكنها لاتكاد تميزك من بيننا .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

-- إن العبادة لا تتقيد بشرط ولا تتطلب رداً .. أنها هى نفسها رد لنعمة سابقة . إنى أعبد الله الذى وهبنى الحياة . وأعبدها لأنها أشعرتني بالحياة . وجعلت لها قيمة عندى ومعنى .

– معنى هذا .. أن خطتنا وثورتنا ومبادئنا معلقة بحياتها .

– الكون كله معلق بحياتها .. إنى أقدس مبادئنا وأقدس ثورتنا التى ستنقذ شعبنا من هذا الظلم والجور . وإنى أقدم حياتى رخيصة من أجل هذا كله .. أما حياتها هى .. ففداؤها كل شيء . فداؤها أنا والمبادئ والشعب والثورة . فداؤها الأرض وما عليها .. هى فى كفة والبسيطة كلها فى كفة .. لا كنت ولا كنا ولا كانوا . ولا كان الكون إذا لم تكن هى . أتفهم ما أقول ؟ أتدرك ما أعنى ؟

– أجل . أجل . أفهم تماماً ، ليرحمنا الله ويعجل بخروجها إن هذا هو أملنا فى النجاة ، إنه الرجاء الذى علق به مصيرنا .. اللهم ألهمها الخروج ، حتى ننقذ حياتنا .

★ ★ ★

واعجباه .. ! من يصدق هذا ! ؟

لو لم أسمع الحديث بأذنى لقلت حديث خرافة ! ؟

أهكذا قد باتت بيدى مصائر الأمور ؟ أبمثل هذه السهولة أستطيع إخماد الثورة وإنقاذ الحاكم ومنع الانقلاب ؟

إن الأمر لايحتاج منى لأى جهد ولا يتطلب مشقة ؟

إنه لايحتاج شيئاً أكثر من أن أبقى ، كما أنا ، نصف ساعة أخرى .. لا أغادر فيها القصر .

نصف ساعة من الصمت والسكون يمكنني بها أن أحبط المؤامرة دون أن أكون وشيت بأحد أو خنت أحداً ..

ولكن ألا يعتبر بقائى خيانة ؟

أليس فى مجرد صمتى وسكونى وبقائى فى القصر خيانة ووشاية واستغلال لعاطفة ذلك المحب المجهول والعابد المتبتل ؟

أمن العدل أن أقابل تضحيته بنفسه وحياته .. بل بكل ما فى الوجود من أجلى .. بأن أقدمه لقمة سائغة وغنيمة باردة وأجعله يفقد حياته .. ويتهم فوق ذلك بخيانة رفاقه ومبادئه .

وهكذا أخذت الأفكار تتصارع فى نفسى .. حتى أحسست أن رأسى يوشك أن ينفجر . وأخذت أنسحب فى سكون من الشرفة إلى داخل القصر .

وكان عدد المدعوين قد أخذ يتضاءل وينكمش ... حتى لم تعد فى الصالة المتسعة سوى بضع جماعات هنا وهناك .. تتجاذب أطراف الحديث .. وارتميت على أقرب مقعد . وأخذت أحدق فى الساعة الكبيرة المسندة إلى الحائط !

وبدأت أرقب عقرب الساعة وهو يتحرك فى هدوء مقترباً من الوحدة ، وأحسست بأطرافى تبرد وجسدى يتثاقل ، إن الوقت يمر ، والسكون سائد ، لا ضجيج هناك ولا فرقعة ، ولا صياح ولا

صليل سيوف ، والضيوف يتسربون الواحد بعد الآخر ، وأنا وحدى ثابتة فى مقعدى وقد علق بصرى بعقرب الساعة .

وكان الذهن يشرد بى فجأة إلى الحديقة فـأتصور الشبحين الجاثمين.. وأنصت إلى همسات يحملها النسيم الخافت :

– إنى أعبدها . أعبد ذرات الثرى الذى تطؤه أقدامها ، لقيت الردى إن مددت يدى إليها بسوء أو مستها بضر ! .

وتخفت الهمسات رويداً رويداً .. ثم تضيع مع دقات الساعة البطيئة المنتظمة ... وأعود إلى نفسى فجأة على صوت الساعة تدق الواحدة !

لقد قضى الأمر وانتهى كل شىء !

★ ★ ★

وهكذا أخمدت الثورة .. وأحاط رجال الحرس بجنودها وقبض على زعمائها وقوادها وأودعوا السجن للمحاكمة العسكرية ، بتهمة الخيانة ، وكان هو على رأسهم !

ولم يكن هناك من يعرف الدور الذى لعبته ، ولقد حاولت أن أقنع نفسى بأنى قد اخترت الطريق الأصوب وأنى حقنت الدماء وأنقذت البلد من شر مستطير ، وأن بضعة القواد الذين سيعدمون – والذين كنت مقتنعة فيما بينى وبين نفسى أنى كنت السبب فى هلاكهم – سيذهبون فداء لالآف الأرواح التى أنقذت ، والتى كان يمكن أن تروح ضحية الثورة والانقلاب .

وحاولت جهدى ألا أترك نفسى تمعن فى الأسف عليهم والندم من أجلهم .. وكدت أفلح فما كانت تربطنى بهم أية صلة أو معرفة ، اللهم إلا هو .. كنت أحاول عبثاً صد طيفه وإبعاد ذكراه . إذا ما خلوت إلى نفسى والليل سكون طاف بى شبحه وأحسست بحنين إليه .. وعاودنى إليه شوق ، وخلت النسيم يحمل إلىّ همساته .. ليردد فى أذنى :

« فداؤها الأرض وما عليها ، هى فى كفة والبسيطة كلها فى كفة » !

ما أسوأ ما جزيته عن حبه !

لقد صان حياتى فأهدرت دمه !

وأستمر الضمير يقرع ... والندم يخز ، والقلب يهفو ، والشوق يشتد ، والحنين يتضاعف .. واللوعة تزداد ، حتى فقدت كل مقاومة .. وجدتنى يوماً أطلب من الحاكم الإذن لى بزيارة السجن .

ودهش الحاكم ولكنه لم يملك أمام إلحاحى رفضاً .

وذهبت للقائه لأول مرة بعد تلك الليلة الليلاء التى لم ألمح فيها سوى شبحه الباهت يتحرك في الظلمة كالشياطين والتى حملت إلىّ كلماته التى تذوب وجداً وتتلهب جوى .

ولم يصعب علىّ تمييزه بإرشاد القلب الخفاق ... والمهجة المشتعلة .

ووصل إلىّ صوته من وراء الجدران فسرت فى جسدى رجفة ، وأحسست بالقلب يصفق ويهفو .

وكيف أغامر بحبه وبالتفكير فيه والحزن من أجله ؟ أيه مجنونة أنا ؟

وأخيراً رأيته ... وقف كلانا أمام الآخر وجهاً لوجه ! ونظر إلى فاغراً فاه . ثم خر راكعاً على ركبتيه .. وهمس قائلا :

– أنت ؟ كيف ؟ إنى لا أصدق عينى .

وسألنى فى لهفة ماذا حدا بى إلى زيارته .. وأمرت الحارس بالانصراف ثم أمرته بالجلوس وجلست بجواره . وأنبأته بالحقيقة بأكملها .. وبأننى وحدى السبب فى نكبتهم . وإنى كنت جلادته !

وأطرق برأسه وأصابه وجوم شديد .. ورأيت وجهه يختلج كمن يحاول كبت رغبة فى البكاء .

وأخيراً نظر إلىّ وقال فى صوت أشبه بالأنين :

– ماذا حدا بك أن تقولى لى هذا ؟ كنت أفضل ألا أعرف ! كنت أفضل أن أموت قريراً !

إن حياته يجب أن تدفع ثمناً لكيان الأسرة الحاكمة التى أعتبر فرداً فيها وأميرة من أميراتها ، فلو أنه قد بقى على قيد الحياة لفقدنا كل ما نملك ولنزلنا من عليائنا ومثل بنا شر تمثيل .

لقد كان ثمة شيء يعزيني عن الفشل ويعزيني عن الهزيمه ويعزيني عن الحياة .. شئ واحد هو الذى بقى لى ليحفظ إيمانى المتبدد ، ويقينى الذاهب .. هو أنت ، هو ثقتى بأنى فعلت من أجلك شئ ... أنت المخلوقة المقدسة المعبودة ،. كنت أشعر أن تضحيتى فى موضعها ، وأنها لم تذهب لثمن بخس .. بل ذهبت لقاء .. حياتك ، وما أثمن ما كانت حياتك ... أما الآن .. فما أبخس الثمن .. ماذا بقى لى الآن من عزاء .. بعد كل ما قلت .

وأمسك بيدى ونهض بى وأشار بيده الى الباب وهو يبتسم ابتسامة ملؤها المرارة ، وهمس قائلا :

تفضلى .. اذهبى .. مع كل ماذهب .

وغادرته مطاطئة الرأس محنية الهامة .. وملء نفسى الاحساس بالندم المذلة ، وملئ قلبى الشعور باللوعة والأسى ..

وعدت إلى البيت ورأسى يصطخب بما فيه ، ونفسى مثقلة بما بها .

ماذا حد بى إلى زيارته ؟ .. ولم قلت له ما قلت ؟ وماذا ترانى أريد منه ؟

ومرت الأيام .. وأخذ موعد إعدامه يقترب .. وكلما اقتربت النهاية استعر الشوق .. وازداد بى الحب .

فكرت ملياً فوجدتنى أستطيع بسهولة تهريبه من السجن وإنقاذ حياته . فقد كان الحراس رهن إشارتى وطوع أمرى .. وهكذا

وجدتنى مرة ثانية فى نفس الموقف الأول .. مترجحة بين إنقاذه وأنقاذ أسرتى وعشيرتى .

وهذه المرة أيضاً ، ليس علىّ إلا أنتظر ساكنة صامتة وأتركه يذهب إلى الجلاد ، وينتهى أمره .. إن هذا هو الواجب الطبيعى الذى يمليه الضمير ، فإن أى محاولة لتهريبه تعتبر خيانة كبرى .

وتذكرت قوله لصاحبه :

« إنى أقدس مبادئنا وأقدس الثورة التى ستنقذ شعبنا من هذا الظلم والجور ، وإنى أقدم حياتى رخيصة من أجل هذا كله ، أما حياتها هى .. ففداؤها كل شئ .. فداؤها أنا والمبادئ والشعب والثورة » .

ذلك كان مبدؤه الذى أملاه عليه قلبه الدائب الخفاق ،

ولقد بدا لى أنه كان وقتذاك على صواب .. فتلك هى شريعة القلوب ومبادئها ..

وفى الليلة الأخيرة ، عقدت عزمى وحزمت أمرى ، وقلت لنفسى : لست بخير منه ، ولا أود أن أكون كذلك إنى أحب أسرتى وأحب أهلى .. كما أحب هو مبادئه وثورته وأقدم حياتى رخيصة من أجلها ... أما حياته عندى فقد أضحت كحياتى عنده ، فداؤها كل شئ : الأسرة والأهل ، والعشيرة ، فداؤها الأرض وما عليها » .

وفى جنح الليل غادرت القصر .. متسللة إلى السجن ، بعد أن

دبرت الأمر خير تدبير ، وهيأت السبيل لنجاته وفراره .. وهيأت نفسى لكل ما يمكن أن يحدث نتيجة لذلك الفرار !

وفتح لى باب السجن .. وكنت أعرف طريقى إلى حجرته فاتجهت إليها رأساً .. ونظرت من النافذة فوجدت الحجرة خالية !

وهتف بالحرس :

أين ساكنها ؟

فقال لى بمنتهى الهدوء والبساطة :

– ذهب .. !

إلى أين ؟ !

وأشار بيده إلى ربوة فقراء موحشة قامت وراء السجن ونظرت حيث أشار .. فإذا بباطنها جسد مسجى لا حراك به .

وأحسست بدوار شديد وتهاويت إلى الأرض !

واحر قلباه .. لقد قضى الأمر .. لشد ما تأخرت فى حفظ مبادئ القلوب وتطبيقها . كان يجب علىّ أن أعيها منذ سمعتها منه : لو كان الله يعيد الموتى أحياء بالدعوات . لقضيت عمرى داعية راجية .

يرحمة الله .. ويغفر لى تقصيرى فى حفظ مبادئه !

★ ★ ★

قصة شعر

هى قصة فتاة كان مبعث سحرها في شعرها ثم قص شعرها ، فما فقدت سحرها لأن السحر كان يكمن فى قلبها ، وفى قوة حبها .

من منكم لم تفتنه جدائل ذهبية تنساب كأنها الأمل المضىء فى دياجير ليلة اليأس حالكة السواد ؟ من منكم لم يسكره عبير شعر سرى مع النسيم شذاه فتركه نشوان يكاد من فرط الطرب يهتف :

هبت لنا من رياح الغور رائحة   بعد الرقاد عرفناها بريـاك

من منكم أبصر بتلك الأمواج من الشعر تتدفق فى لين ورفق ... فلم يحس باللهفة إلى أن يتخللها بأصابعه وأن يغمر فيها أنفه ويتحسسها بوجه ؟ .. من منكم أبصر تلك الشلالات المتساقطة من الخيوط الذهبية فاستطاع أن يقاوم تيارها الجارف وفتنتها الدافقة ؟ .

إذا كان هناك من استطاع .. فأنا لم أستطع !

أجل .. أبصرتها فعصفت بى ريح الشوق والحنين .. ورأيتنى أندفع إليها دون ترو ولا تفكير .. فأكاد – لولا مسكة من عقل – أسألها أن تسمح لى بتقبيله .. أو حتى بمجرد لمسه ! !

وأخذت أرقبها من بعيد دون أن أقوى على تحديد ما أبغى

منها ! ! وتساءلت ألا يمكن أن يكون كل ما أبغيه أن أسترق النظر إلى شعرها المتدهل على كتفيها .. المنساب على ظهرها وقد انبسطت أطرافه على الرمال عندما جلست صاحبته متكئة على الشاطئ ؟ .

وبدأت منذ ذلك اليوم أحوم حولها ، وبدأت هى كذلك تحس منى الهيمان .. فتبادلنا النظرات مرة .. وتبادلنا الكلمات مرات .. ثم التقينا .. وجلسنا فوق الصخرة .. وتمددت أمامى واضعة رأسها فى حجرى وكأنى يخيل وضع كنوز العالم بين يديه ! وقلت لها وأنا أتخلل شعرها بأصابعى وأدفن فيه وجهى:

– ما كنت أحسب أننى سأقع تحت تأثير شعر كما فعل بى شعرك العجيب !

فرفعت الفتاة رأسها وسألتنى متخابثة :

– أهو شعرى فقط الذى أوقعك تحت تأثيره ؟

– أجل .

ألا ترى بى جميلا سواه ؟

– حتى الآن .. لا .. لقد أعشى بصرى بريقه الخاطف فلم أعد أبصر سواه .

وزوت الفتاة ما بين عينيها فاستضحكت وقلت :

وماذا يغضبك فى أن يكون مبعث سحرك شعرك الفاتن ..

وشعرك فقط ؟ .. أليس المهم أن يكون فيك ما يسحر ويخلب اللب ؟ إنى واثق أنك لو فقدت شعرك فسينتقل سحرك إلى أى شئ آخر ، قد يكون شفتيك ، أو ساقيك من يدرى ؟ !

ورنت إلى بعينيها الخضراوين الضاحكتين فى شئ من اللوم والتأنيب ، فاستطردت قائلا :

– تحضرنى الآن قصة فتاة مثلك .. كان مبعث سحرها فى شعرها ... ثم قص شعرها فما فقدت قط سحرها لأن السحر كان يكمن فى قلبها ، وفى قوة حبها .

– قصها علىّ إذن .

– إنها أسطورة إغريقية أقرب ما تكون إلى الخرافة .

تبدأ القصه منذ ألفى عام ، فى أوائل عام ٢٠ قبل الميلاد وقد حاصر الرومان مدينة سيراقوزة بعد أن أعياهم دخولها .. واستمر الحصار ثلاث سنوات دون أن تهن عزائم الجنود .. بل زادتهم السنون عزيمة وحماسة وشاركتهم النساء فى حماستهم وشجاعتهم وإصرارهم على الظفر والانتصار .

وكان من بين جنود سيراقوزة فتى عاشق لاتكاد تسنح له خلسة من الوقت حتى يطير إلى معشوقته فيتزود منها بما يبعث فى نفسه الأمل ويحيى بها ما خمد من قواه وما فت من عضده . فيعود إلى خط القتال أشد ما يكون قوة وأملا .

وكان أشد ما يفتنه منها هو شعرها العجيب الذى ينساب على

ظهرها وكتفيها فى بريق أخاذ ، ويكاد من فرط طوله يصل إلى ساقيها .. وكانت الفتاة تحس شدة شغفه بشعرها فكانت شديدة العناية به والحرص على مظهره وما كانت تقابله إلا تركته ينسدل حولها فى لين واسترخاء .

وفى ذات يوم وقف الفتى يودع صاحبته بعد لقاء جميل .. فتبينت الفتاة أن قوسه قد أصاب البلى أو تارها فقد رقت وتآكلت .. وكان من العسير تغييرها فى ذلك الوقت فقد كانت تصنع من أوتار الحيوان وأعصابه .. وكان الحصار قد أتى على معظم الحيوانات التى تؤخذ منها أوتار الأقواس .

وأمسكت الفتاة بالقوس فنزعت عنها الوتر البالى .. ثم إختفت برهة وعادت بعد أن قصت خصلة من شعرها وأخذت فى جدلها لتضعها فى القوس مكان الوتر القديم .

وذهل الفتى فى بادئ الأمر ، فقد أحزنه أن تنزع من شعرها الجميل بعض شعراته .. ولكنه عندما أمسك بالقوس وتحسس وترها الجديد وشم عبير صاحبته .. أدرك أنه يستطيع أن يصد به جنود العالم أجمعين .

وعاد الفتى إلى خطوط القتال .. ودهش زملاؤه لتلك المهارة التى بدت منه فى ذلك الحين .. فما طاش له سهم قط .. وأدركوا أخيراً سر قوسه .. وانتشر الأمر بينهم .. فلم تمض بضعة أيام حتى كان كل منهم قد صنع قوسه من شعر صاحبته .

ومرت الأيام والجنود الرومان يلاقون الأمرين من دقة إصابة تلك الأقواس الجديدة التى كانت سهامها لاتخطئ مرماها ولا تحيد عن هدفها .. حتى كان ذات يوم استطاعت ثلة منهم الاهتداء إلى نقطة ضعيفة فى أسوار المدينة فتسللوا منها وتبعهم بقية الجنود إلى الداخل .. وفى لمح البصر كانت المدينة قد اكتظت بهم ، وسقطت الحصون جميعها إلا حصناً واحداً استمر فى المقاومة ... وكان هذا الحصن هو الذى فيه الفتى ورفاقه أصحاب الأقواس .. وأخيراً سقط الحصن تحت ثقل ضربات الرومان بعد أن سبب لهم خسائر فادحة .

وهكذا سقطت سيراقوزة بعد طول مقاومة .. ووجد جنودها البواسل أنفسهم قد أضحوا تحت رحمة الرومان ما بين قتيل وجريح ومكبل بالأغلال ... وامتلأت رؤوس الرومان بنشوة النصر بعد أن أذاقهم عدوهم كأساً أجاجاً .

وعلم قائد الرومان كيف صنعت النساء لهم من شعورهن أوتاراً للأقواس ، وكيف كانت تلك الأتار سبباً فى الفتك بجنوده .. فصمم على أن يكون من انتقامه سخرية وهزؤ وأن يعطيهم درساً قاسياً .. فأصدر أوامره بجمع نساء المدينة ذوات الشعور الطويلة المسترسلة وأمر بأن تقص شعورهن .

ووجدت الفتاة العاشقة نفسها وقد سيقت وسط جمع من النساء وقد أحاط بهن نفر من جنود العدو .. وأخذت تسير بينهم وقد

أصابها شبه ذهول ، فلم تك تدرى إلى أين يذهب بها أولئك القساة ولا ماذا سيصنعون معها .. أما ذهنها فقد شرد إلى حيث فتاها المحبوب .. ترى أين هو الآن .. وإلى أى حال قد صار جريح أم أسير أم قتيل ؟ كم تود لو استطاعت أن تطير إليه فتفتديه بنفسها وتحتويه بين ذراعيها وتتركه يعبث بيديه فى شعرها كما تعوّد أن يفعل .

وفجأة وجدت الفتاة نفسها وقد وقفت بين الجمع فى حجرة خشبية متسعة الأرجاء .. وسمعت بين النساء همهمة عرفت منها أنهم ينوون قص شعورهن .. وأبصرت بامرأة قد وقفت وبيدها مقص أخذت تشحذ حديه .

وأحست الفتاة بمرارة فى نفسها .. ونظرت إلى المرأة من خلال دمعتين تترجرجان فى مقلتيها .

إنهم سيقصون شعرها الجميل .. إنهم سيطفئون بريقها ويستأصلون مبعث السحر فيها ويتركونها كأنها رماد خامد بارد .. لو كان الأمر يقتصر عليها هى لاستطاعت احتماله ، فهى شجاعة قوية القلب ، ولكنه ليس شعرها وحدها ، إنه شعره هو .. إنه ذلك الشئ الذى يحبها من أجله .. إنه منبع الفتنة التى تفتنه بها .. ترى كيف تستطيع لقاءه بعد ذلك .. لقد كانت تحس أن ذلك المقص لن يقص شعرها بل سيقطع ذلك الرباط المتين الذى كان يشد بعضهما إلى بعض ! ؟ .

وبدأت المرأة تقص شعور النساء اللاتى أمامها .. ووقفت هى ترقب بضعة رجال جلسوا فى ركن من الحجرة يتلقون الشعر من المرأة ويجدلونه ليصنعوا منه حبالا لم تستطع أن تدرك ماذا ينوون أن يصنعوا بها .

وأخيراً جاء دورها ، فتقدمت مكتئبة مستسلمة وجلست أمام المرآة ، وقد أغمضت عينيها ، إذ كانت تحس أنها على وشك أن يغمى عليها ... وضمت شفتيها حتى تكتم صرخات الحزن التى كانت تصطخب فى صدرها .. وأحست بالمقص يقص خصلات شعرها فكأنه يقطع نياط قلبها .. وبعد لحظة دفعتها المرأة عن المقعد .. لقد انتهى الأمر .

واقتيد النسوة بعد أن أنتهت المرأة من قص شعورهن جميعاً .... إلى الميدان الفسيح القائم وسط المدينة .. ولم تمض لحظات حتى أبصرن بضعة رجال قد حملوا الحبال التى جدلت من شعورهن .. وأخذوا يصنعون منها عدة مشانق أقاموها فى وسط الميدان .

وارتاعت الفتاة من هول ما رأت ، وأحست بقلبها يعتصر فى جوفها .. ياللسخرية من يصدق أن شعرها الجميل قد أصبح حبلا يشنق به قومها ؟ !

وبعد هنيهة أبصرت الفتاة بالجنود الرومان يسوقون أمامهم نفراً من أسرى « سيراقوزة » البواسل .. هم أولئك الجنود الذين كانوا

يحتلون الحصن الذى استمر فى المقاومة . وعلى حين غرة لمحت الفتاة بينهم فتاها المحبوب .

وصرخت الفتاة صرخة مدوية ، وخرت على الأرض فاقدة الوعى .

وأفاقت الفتاة فإذا صمت مخيف يسود المكان .. وقامت متحاملة على نفسها كأنها شبح يسرى فى الظلام ... فأبصرت القوائم الخشبية وقد تدلت منها الجثث تترجح فى الهواء .. إلا قائماً واحداً كان خالياً من جثته ، ولم يكن يتدلى منه سوى قطعة حبل قصيرة ... وأحست بدافع خفى يدفعها إلى التقدم نحوه .. فتقدمت فى بطء وهدوء .. فإذا بجسد قد تمدد فى أسفل القائم الخشبى .. استطاعت فى تميز فيه لأول وهلة .. فتاها الحبيب ! ! .

وسقطت الفتاة على الجسد تضمه بين يديها وتلصق وجهها بوجهه وصدرها بصدره .. فإذا بها تحس بجسده دافئاً وبأنفاسه مازالت تتردد ، وبقلبه يدق دقات خافتة .

ومدت الفتاة يدها تتحسس الحبل الملفوف حول عنقه فإذا به جدائل شعرها .. لقد قطع الحبل فهو بالفتى قبل أن تخمد أنفاسه ! .

أتراها محض مصادفة ؟ .. أم ترى قد سرى إلى الحبل من صاحبته سحر جعله يترفق بصاحبه .. فكان شفيقاً حنوناً فلم يشد على عنقه .. وهو به حتى لايورده موارد العطب ! ! .

لقد فتح الفتى عينيه ببطء .. فوقع بصره على فتاته تحنو عليه فى رفق وشغف .. وأبصرت منظرها غزيباً .. لقد ذهب شعرها .

وهمست فى أذنه :

ألا ترانى جميلة ؟

وهمس الفتى :

– ما رأيتك قط أجمل مما أنت الآن .

أجل لقد كان شعرها مظهر سحرها .. فلما ذهب شعرها .. بقى السحر كامناً فى قلبها وقوة حبها .

★ ★ ★

ونظرت إلى الفتاة فإذا بها تنظر إلّى نظرات حالمه تائهة ، فانحنيت عليها بوجهى ومسست شفتيها بشفتى ، فسمعتها تهمس متسائلة :

– أيمكن أن يكون فى الحقيقة شيء كالذى قصصته علىّ ؟

– فهمست فى فمها :

– ولِمَ لا ! !

★ ★ ★

أحلام الملاح

إن آخر أمنياتى الجامحة المجنونة .. أمنية أعلم أن القدر قد أبعدها عنى .. أما كيف حققت هذه الأمنية فعشت بها فى الأحلام زمناً رغداً ، فذلك ما أقصه على سبيل التسلية والفكاهة .

على ضفاف النيل .. فى ليلة ساد فيها السكون ، وعم الصمت ... وسرى الفتور فى أعضاء الكون ، فأخلدت الكائنات إلى الدعة ، حتى النسيم كف عن السريان ، فما عاد يسمع لأوراق الشجر حفيف ولا خشخشة .. وبدت الطبيعة كأنها فى غفوة ، أو فى حالة إغماء .. فكل ما فيها ، وما حولها ، راكد لا حراك به خامد لا حياة فيه .

وأنساب الزورق على صفحة الماء الملساء المنبسطة .. وأخذ المجداف يتحرك بين يدى الملاح ، فيمس الماء فى لين ويشقه فى رفق كأنما كان الرجل يخشى أن يفيق الكون من هجعته ، ويستيقظ من ضجعته .

وألقى الزورق مرساه على الشاطئ ، أمام كوخ منفرد متواضع .. وربط الملاح زورقه فى جذع شجرة ، وخطا ببطء نحو الكوخ ، وقد أخذ يدندن فى صوت خافت ، إحدى الأغنيات الجميلة الهادئة .

كان ذلك منذ عهد سحيق القدم .. حوالى العام الثلثمائة قبل الميلاد .. وكان فتانا الملاح يكسب قوته من نقل الناس من شاطئ إلى آخر ... أو تهيئة نزهات قصيرة لهم فى عرض النهر .. وكان أصحاب القصر القائم أمام كوخه فى الشاطئ الآخر كثيراً ماينفحونه بهبات جزيلة ، لقاء بعض الخدمات التى يؤديها لهم ، أو مكافأة له على الخروج بهم فى ليالى الصيف المقمرة للنزهة فى النيل .

ولم يكن الفتى فى قرارة نفسه ليقنع بعمله هذا ، أو يرضى عنه .. فقد كان يحس أنه لم يخلق لأداء مثل هذا العمل التافه ، وكان موقناً أن حياته لايمكن أن تستمر على هذه الوتيرة ، وأنه لابد مرتفع إلى حيث ينبغى أن يكون .

ولكن الأيام كانت تمر ، والفتى كما هو .. يضرب الماء بمجدافه فى سكون وتؤدة ، حائراً بين الشاطئين ، شادياً مترنماً ، يأوى آخر النهار مرقده فى كوخه الحقير .

وكان الفتى على حق فى ظنه بنفسه .. ولم يكن مابه غروراً أو ادعاء .. فقد كان فتى عجيب الخلق فى باطنه وظاهره .

أما ظاهره فقد جمل الله خلقه .. إذ كان وسيم الوجه ، جذاب الملامح ، طويل القامة ، مفتول العضلات ، ولو كان القدر قد أنصفه ، من حيث مظهره ، لوضعه موضع ملك من الملوك ، أو أمير من الأمراء .. أما فى باطنه فقد كان ذكى الفؤاد ، صادق

الحس .. شاعرى النفس ، مرهف الشعور .. يستهويه الفن .. ويسكره الجمال .

وكان الفتى يحس أن الشعور المتأجج فى نفسه يذهب هباء .. فقد كانت رقة حاله ، وحقارة عمله ، تطغى عليه ، فتخمده كما تخمد الجمرة بحفنة من الثرى .

كان الفتى بعيد مدى الخيال ، فبدأ يقنع من حقيقة الحياة بأحلامها ، وأخذ ينطوى على نفسه ويعيش بها فى عالم آخر رسمه هو كما يود أن يكون ، وأحس السعادة تغمره ، فقد وضع نفسه فيما تتمنى أن توجد فيه .. وأنصفها حيث ظلمها القدر .. وبدأ يعيش بها فى جو جميل من الأوهام ، وقصور بللورية من أحلام عذبه نفخ فيها من روحه الشاعرية أنواراً ساطعة لامعة براقة .

وأخذ الفتى يطير على أجنحة الوهم إلى عالم الخيال ...... فنال كل ما كان يحلم به .. وكان يقضى طيلة يومه فى مرح وغناء ، وكان عذب الصوت شجيه ، حتى إذا ما أقبل الليل عاد إلى كوخه ، فامتطى الشجرة العجوز التى تحنو عليه ، وأسند ظهره إلى أحد فروعها ، ورنا ببصره إلى السماء ، سابحاً بين النجوم ، واستغرق فى أحلامه ، حاملا نفسه إلى دنيا أخرى تحقق أمانيه .

وفى ذات ليلة رسا بزورقه أمام القصر وكان القمر يسطع فى كبد السماء ، وأهل القصر يبغون النزهة .. وكان الفتى يصلح

المجداف فى موضعه عندما أحس شخصاً يقفز إلى الزورق ، فنظر خلفه ، فإذا بابنة صاحب القصر قد جلست فى مؤخرة الزورق .

وحياها الفتى ، ثم وقف ينتظر .. فسألته الفتاة :

ماذا تنتظر ؟

البقية يا سيدتى .

– البقية لن تأتى .. فأبى مشغول .. وأمى متوعكة .

وبدأ الزورق يسير ، وقدران على راكبيه صمت عميق .. ولاحظ الفتى أن الفتاة مطرقة يبدو عليها الوجوم والحزن فقطع حبل الصمت بسؤاله :

مالسيدتى الليلة يبدو عليها الحزن .. ترى هل هناك ما سبب كدرها ؟

وصمتت الفتاة برهة .. فقد كانت راغبة عن الحديث .. ولكنها لم تكن تود أن تسئ إلى الفتى .. فأجابته فى اقتضاب :

– وهل تخلو الحياة مما يسبب الكدر ؟ !

– أى حياة تقصد سيدتى ؟ إذا كانت تقصد حياة أمثالنا فهى لاشك لن تخلو من الكدر ، لأنها مليئة به .. أما حياتكم أنتم فلا أدرى من أين يأتيها الكدر !

– لا فرق بين حياة وحياة .. فالكدر موجود هنا وموجود هناك .

– على كل حال يا سيدتى ، إذا كان لديك ما يسبب كدرك ، فأفضل طريق للتغلب عليه ، هو أن تفعلى مثل ما أفعل .

ولم تتمالك الفتاة نفسها من الضحك وسألته فى تهكم :

– وماذا تراك تفعل ؟

– مادام لدى المرء شجرة ، وفى السماء نجوم ، فكل ما فى النفس من أحزان وأشجان يمكن أن يصبح فى لمح البصر هشيما تذروه الرياح .

ونظرت الفتاة إلى صاحبنا الملاح فى عجب ، وخيل إليها أن الفتى قد احتسى بعض الراح فأخذ يهذى بما لايعى ..

ولكن الفتى أردف متمماً حديثه :

– لست أقول إلا الصدق ، وما رأيت هناك أنجع من طريقتى هذه فى إزالة الهموم .. ففى كل ليلة عندما أعود إلى الكوخ ، أسند ظهرى إلى الشجرة العجوز الوفية ، وأسبح ببصرى فى نجوم السماء ، فأنسى دنيانا هذه ،وأنتقل إلى عالم آخر فيه كل ما افتقدته فى عالمنا الحقير الوضيع ، وأحصل منه على كل ما حرمته فى هذه الدنيا .. كم من ليلة مرت علىّ وأنا ملك متوج ، يحف به الأمراء والكبراء ، ويركع أمامى الخدم والعبيد .. وكم من ليلة كنت فيها قوياً باطشاً ، ترهبنى الجبابرة ، وتخشانى الأسود الكاسرة .. وكم من ليلة عشت بين الغيد الحسان ، ونجاوب العيدان ، والخمر المعتقة والاطعمة الشهية .. ما تمنيت شيئاً إلا وحصلت عليه فى

عالم الأمانى ، وما أزعجنى أمر إلا ونسيته فى دنيا الأحلام .. وهكذا تريننى يا سيدتى قد سخرت من القدر الساخر وعبثت بالدنيا الهازلة : فلا أفيق من الأحلام إلا ونفسى خالصة من كل ما يشوبها من كدر وحزن .

وكانت الفتاة تنصت إليه ، فلما انتهى من الحديث هزت رأسها فى بطء وقالت :

– لا يا صاحبى ، إنك جد مخطئ .. كان أولى بك أن تقول : إنك لاتكاد تفيق من أحلامك ، حتى تجد نفسك قد هويت من حالق ، فإذا بك حيث كنت لاحيث أردت أن تكون .. وإذا بشعورك بالحرمان يشتد عن ذى قبل .. وإذا بالقدر الساخر يمعن فى سخريته ، والدنيا الهازلة تزيد من هزلها وعبثها .

– هذا هو الطمع بعينه .. ألا يكفى أن نسعد بالأحلام فى الوقت الذى نحلم فيه حتى تريدى أن تضمن لنا الأحلام سعادة دائمة .. وأى شئ من الحقائق فى هذه الدنيا لاتنتهى لذته بانتهائه .. ! كل شئ متعته بائدة ، ولذته مصيرها إلى الفناء .. فلم نحزن إذا انتهت لذة كسبناها فى الخيال ؟ ! .

لا ياسيدتى .. لا يكفينا أن تكون الأحلام والأمانى :

« منى إن تكن حقاً أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً »

نعم يا سيدتى ، لقد عشت بها حقاً زمناً رغدا ، وهذا هو كل ما أريد .

وأعاد الملاح الفتاة إلى دارها ، وكان قد سرى عنها ، وذهب ما بنفسها من حزن فودعته وهى تقول ضاحكة :

– ترى ماذا ستكون الليلة ملكا ؟ أم قاهر جبابرة وأسود ؟

– لا ياسيدتى ، لقد فرغت من تلك الأمانى .. إن عندى أمانى جديدة أعذب وأحلى .

وخرجت الفتاة بعد ذلك عدة مرات تتنزه وحيدة مع الملاح ، فأطربها حديثه ، وأعجبتها آراؤه .

وفى ذات ليلة ، والزورق ينساب فى هدوء ، وكل ما فى الكون يبعث فى النفس طربا وفى الفوائد بهجة وحبورا ... سألت الفتاة الملاح :

– حدثنى عن آخر أحلامك فوق شجرتك العجوز وتحت نجوم السماء .

وأطرق الفتى برهة ، ثم رفع رأسه وسألها :

– أتريدين الصدق ؟

– لو لم أكن أريده لما سألتك شيئاً ! !

– إن آخر أمنياتى الجامحة المجنونة .. أمنية أعلم أن القدر قد أبعدها عنى ، كما أبعد هذه النجوم التى تلمع فى السماء .. تلك

هي حب فتاة .. سأقول لك الحق كله .. فكما أنني لا أخشى أن يعلم الملك أنني أحلم أن أكون ملكا .. لأنه سيضحك ملء شدقيه ، فكذلك لا أخشى أن أقول لك إن هذه الفتاة هي أنت ... لأن ذلك مجرد خيال أو أمنية .. لا تستحق من سيدتي إلا الضحك .. أما كيف حققت هذه الأمنية ، فعشت بها في الأحلام زمناً رغدا ، فذلك ما أقصه لك على سبيل التسلية والفكاهة .

تخيلت يا سيدتي أني رحلت إلى بلاد بعيدة نائية .. ثم عدت منها بجيش عجيب من الفيلة الضخمة الهائلة ، وغزوت بها هذه البلاد ، والتقيت بجيوش الملك ، فحطمتها الفيلة وصرعتها في غمضة عين .. وذلت لي الأعناق ، وطأطأت الهامات .. وصرت ملك البلاد لاشريك لي ولا منازع ، وأمرت رجالي أن يسبقوني إلى القصر الملكي .. وامتطيت ظهر أحد الفيلة ، وذهبت إلى أعرفه يشرف على النيل وتركت الفيل بعيداً حتى لا أخيف الفتاة .. ثم قفزت من سور الحديقة ، فإذا بها قد جلست وحيدة في إحدى الشرفات وكان جمالها فياضاً .. وسحرها لايقاوم ، وقد بدا على وجهها الهدوء الذي أعشقه فيها .. ودهشت الفتاة حينما رأتني ، وبدا لي أنها تحبني هي الأخرى ، فقصصت عليها القصة ، وطلبت إليها أن تكون ملكة .. وشعرت بالسعادة تملأ جوانحي عندما أخبرتني أنها تفضل أن تكون زوجتي قبل أن تكون ملكه .

ولم يكد ينتهي الملاح من قصته ، حتى استغرقت الفتاة في

الضحك ، وكان الزورق قد وصل إلى الدار ، فقفزت منه الفتاة ، وحيت الملاح قائلة :

– لم أر ألطف من الطريقة التى تحقق بها أمانيك .. ولكنك فى الواقع تبالغ كثيراً .. فالمسألة لم تكن تحتاج إلى فيلة ، ولا جيوش ، ولا صراع ولا قتال ! .

واختفت الفتاة فى الظلمة ، وعاد الفتى يشق المياه بزورقه .

وأثبتت الأيام للفتى بعد ذلك أنه قد بالغ حقاً فى الطريقة التى حقق بها أمنيته فى الخيال ... فقد رأى أنها تحققت فى الواقع ... ورأى نفسه يقفز من السور حقاً ، ويجلس مع الفتاة فى الشرفة يتبادلان الهوى ، ويتطارحان الغرام ، دون حاجة إلى أن يأتى إليها على ظهر فيل مع جيشه الضخم فقد كان يأتى بزورقه المتواضع ، ودون حاجة إلى أن يقهر الجيوش ، ويعتلى العروش ، فقد كان لا يزال .. كما هو ... ملاحا فقيراً ! .

ووقعت الفتاة فى حبال الملاح ، وغمرها الهوى فى فيض من النعيم ... وكانت تشعر أن حياتها قد خلت إلا من هذا الملاح ، فهى لاترى غيره سواء غاب أو حضر ... وكانت تحس السعادة طيلة يومها ، لا لشئ إلا لأنها ستلقاه فى المساء .

وفى ذات ليلة تأخر الفتى عن موعده ، فقلقت الفتاة ... ثم سمعت فى الخارج بعض الضجيج ، فأرسلت خادمتها لتستجلى الأمر .. فعادت الخادمة بعد لحظة وأنبأتها أن الحراس قد وجدوا

لصاً يحاول تسلق السور .. وأنه حاول الفرار ، فصوب إليه أحدهم سهماً أرداه صريعاً .. وهم يقولون إن اللص لم يكن سوى الفتى الملاح ! .

وذهلت الخادمة عندما رأت سيدتها تهوى إلى الأرض لا حراك بها ... وقد علت وجهها صفرة مخيفة .

* * *

وسرت بين القوم بعد ذلك إشاعة أن ابنة صاحب القصر قد أصابها مس من جنون ، فهى أبداً ذاهلة واجمة ، تائهة شاردة .. لا تنطق ولا تتكلم إلا ساعة من ساعات المساء ، عندما تذهب إلى إحدى الشرفات ، تنظر منها إلى الحديقة كأنها تنتظر شيئاً ... ثم تأخذ فى التحدث إلى نفسها بصوت هامس خافت .

وتكلمت الفتاة لأول مرة ، فطلبت أن يأتوها بأحد القوارب .. وسار القارب بالفتاة الحزينة الذاهلة ، حتى وقف أمام كوخ الملاح ، فنزلت الفتاة ، ورأت الكوخ قد علاه البلى والخراب .. والشجرة العجوز قد دب فيها الفناء .

واقتربت الفتاة من الشجرة الجرداء الذابلة الأغصان المتساقطة الأوراق حتى أسندت إليها ظهرها وتطلعت ببصرها إلى النجوم المتناثرة فى السماء ، وفى سكون الليل الرهيب انبعث صوت الفتاة المجنونة يسرى فى الظلمة هامسة فى شبه نحيب :

– أما من عزاء ! أما من صبر ! . هنا كان يقف ، وإلى هناك

كان يتطلع .. كانت الشجرة تحنو عليه والنجوم تسمع شكواه وتبدد أحزانه .. كان يقول لى .. ما دام لدى المرء شجرة وفى السماء نجوم فكل ما فى النفس من أحزان وأشجان يمكن أن يصبح فى لمح البصر هشيما تذروه الرياح ، وكنت لا أجده مبالغاً فى أقواله .. فقد كنت أشعر أن هناك شيئاً فى الحياة .. يمكن أن ينسينا أحزاننا ويذهب بآلامنا فى لمح البصر ، وكنت أنا نفسى أجد ذلك الشئ فى بريق عينيه ، وفى قوة إيمانه .. كانت عيناه هى نجومى ، وكان إيمانه هو شجرتى .. فلما انطفأت نجومى وهوت شجرتى .. أحسست بالحنين الى نجومه ، وشجرته علها تبدد أحزانى وتشد أزرى ، ولكن حتى هذه قد خذلتنى .. أين العزاء .. إذا كانت الشجرة نفسها قد أذبلها الحزن وأودى بها الجوى ، أين السلوان والنجوم المتلألئة باتت وكأنها تلمع بقطرات الدموع .

★ ★ ★

الخاسرة الرابحة

أتظنين أن ربح المال هو كل شئ في الحياة ؟ إن الخسارة قد تكون في بعض الأحيان خيراً من الربح .

رآهـــا أول مرة في ذلك الدرب الضيق القذر بالقرب من حانة أبيها الكريهة المظلمة .. وكانت وقتئذ صبية لا تتجاوز الثانية عشرة .. ولم يكن فيها ما يسترعى الانتباه أو يستلفت النظر ، فقد كانت الأزقة مكتظة بمثيلاتها من الصغيرات المشردات بأسمالهن الرثة البالية التي تكشف من أجسادهن الضعيفة أكثر مما تستر .

ولكن الرجل ما كاد يتجاوزها حتى وجد قدميه تعودان به القهقرى إلى حيث وقفت الصبية ، وأمسك برأسها يقلبها في يديه ويديرها ذات اليمين وذات اليسار ، كما يفحص بائع الدمى دمية في يده ، أو كما يفحص المرء قطعة من النقود التقطها من الثرى .

وذهلت الصبية وعقد الدهش لسانها فلم تنبس ببنت شفة واستسلمت للرجل .. ولكنها أفاقت لنفسها بعد هنيهة فدفعت يد الرجل عنها بعنف وشدة وتلفظت ببعض ألفاظ السباب ثم أمسكت بحجر فرجمته به وفرّت هاربة لاتلوى على شئ .

وفوجئ الرجل بما فعلته الشيطانة الصغيرة فهمّ بالعدو وراءها ..

ولكنه تمالك نفسه وعاد إلى رزانته ووقاره .. وسأل عنها الصبية الذين التفوا يتصايحون من حوله فأنبئوه أنها بنت صاحب الحانة .

ووجد الرجل نفسه ينساق نحو الحانة .. وأثار دخوله همسات القوم ، إذ لم يعتد روادها أن يروا بينهم إلا السوقة والدهماء .. واندفعت امرأة صاحب الحانة ترحب بالسيد وتعرض عليه خدماتها .

وانتحى الرجل ناحية بعيدة فى أحد أركان الحانة وجلس فى تؤدة وصمت ، وسرعان ما كف القوم عن همساتهم ، وأعادوا رءوسهم بين الكئوس وأوراق اللعب ، وتأمل الرجل المرأة الواقفة فإذا بها طويلة متينة البنيان بها أثر جلى من جمال عفا وباد ، كأنما كتب على وجهها : « هنا كانت امرأة جميلة » .. واستطاع أن يلمح فى قسمانها ذلك الشبه الشديد بينها وبين الصبية الهاربة .

وطلب الرجل كأساً من الخمر وترفق بالمرأة فسألها أن تجلس معه ، وجلسا يتجاذبان الحديث .. فأثارت المرأة عجبه إذ كانت ذات شخصية قوية جارفة .

وأنبأها الرجل أن طفلتها هى التى دفعته إلى المجئ إلى الحان ، فقد استوقفته فتنة كامنة فى نفس الصبية ، وجمال من الخطأ يلقى به فى الأزقة وسط القمامات .. وقص عليها ما كان من أمر الصبية ، ورجمها إياه بالحجر .

فأجابته المرأة ضاحكة :

— هى شيطانة صغيرة ، مليئة بالشر ، مفعمة النفس بالريبة والشك ، وأغلب ظنى أنها قد ورثت ذلك عن أبيها فهو دائم ارتياب فى كل مخلوق حتى فى نفسه .

ومنذ ذلك اليوم والرجل كثير التردد على الحانة ، ونشأت بينه وبين المرأة صداقة وود .. وكان لايكاد يبصر زوجها إلا فى القليل النادر فقد كان أبداً مخموراً لايكاد يفيق لحظة .

وكان الرجل ذا ثروة واسعة إذ كان يمتلك معظم ملاهى المدينة ومسارحها ، وكان يحس فى نفسه أنه اذا استطاع تهذيب هذه الصبية الصغيرة وتدريبها ، فسيجعل منها أعجوبة من أعاجيب الزمن .

ولكن الصبية كانت ، كما قالت أمها ، كثيرة الريبة والشك لاتطمئن لأحد ، فهى لم تر فى حياتها إلا هؤلاء الذين يترددون على الحانة والذين تمتلئ نفوسهم بالشرور والآثام والذين يقضون حياتهم وعيونهم مثبتة بأوراق اللعب وقد ملأهم الجشع وأعمتهم الأنانية ، هؤلاء الناس الذين لايعطون إلا لكى يستردوا اكثر مما أعطوا .

وفى ذات يوم أقبل الرجل على الحانة ، وقد حمل فى يده صندوقاً كبيراً وطلب من الأم أن تستدعى الصبية الجميلة فأقبلت عليه عارية القدمين فى أطمارها البالية ، وأخرج الرجل ما فى

الصندوق فإذا به ثوب جميل مزركش ، وأعطاه للصبية باسماً ، وأخبر الأم أنه يود أن يرى كيف تبدو الصبية فى ذلك الثوب .

وأحست الأم بالامتنان للرجل ، وطلبت من ابنتها ارتداءه ، فترددت الصبية برهة واخذ بصرها ينتقل بين الرجل والثوب فى شك وريبة ، وأخيراً جذبت الثوب وارتدته بسرعة فوق ما عليها من أسمال وأخذت تتحسسه برهة وقد تغلب عليها الزهو ، ولكن زهوهالم يطل إذ سرعان ما بدت على وجهها علامات الغضب والنفور ، وأمسكت الثوب تمزقه إرباً إرباً ، ثم ارتمت باكية فى حضن أمها وأسرت لها في صوت متشنج أنها لاتريد إحساناً من أحد .

وبدا الألم على وجه الأم وتمتمت ببضع كلمات على سبيل الاعتذار للرجل . ولكن الرجل لم يكن بنفسه غضب من عمل الصبية ، فشد على يد الأم وانصرف فى سكون .

ومن ذلك اليوم والفتاة لاتفارق موائد اللعب ، ولا تترك أبداً مكانها خلف المقامرين ، وقد علقت عيناها بأوراقهم .

كانت الصبية تشعر أنها خير من قومها ، وأن مكانها ليس فى تلك الحانة القذره المظلمة ، ولكنها أدركت أن الفقر هو الذى يقيدها بأغلاله ، فباتت تتلهف على المال ، حتى تستطيع أن تضع نفسها حيث يجب أن تكون .

كانت الصبية شاذة فى نوعها ، فقد ورثت عن أمها الجمال

وشدة الذكاء وحدة الذهن ، وورثت عن أبيها الشر وكره الناس والريبة فيهم .

ومرت الأيام والصبية لاتبارح اللاعبين ، وأخذ اللاعبون بدورهم يستبشرون بها حتى أصبحت لازمة من لوازم اللعب ، ولم يمض عام أو بعض عام ، حتى بدأت هى نفسها تشترك فى اللعب ببضع دريهمات اختلستها من أمها .

ولم ينقطع الرجل عن التردد على الحانة طيلة تلك المدة فقد صمم على أن يصنع من الصبية ذلك النموذج الذى فى رأسه وعقد النية على أن يستدرجها حتى يرتفع بها إلى حيث يود أن يضعها .

وبدأ الرجل يشترك فى اللعب مع اللاعبين ، وكانت الصبية دائمة الربح فى كل مائدة ، ولكنها لاتكاد تجلس إلى مائدة الرجل حتى تخسر كل ما ربحت .

وفى ذات مرة تركت الصبية المائدة ، وصدرها ملئ بالحنق ، وعيناها تترقرق فيهما الدموع ، فقد سلبها الرجل كل ما سلبته هى من رواد الحانة ، وتبعها الرجل فأمسك بذراعها وانتحى بها ناحية بعيدة ، وسألها عما يبكيها فأجابته حانقة :

– إنى أريد المال ، أريد أن أربح دائماً !

– أتظنين أن ربح المال هو كل شئ فى الحياة ! إن الخسارة قد تكون فى بعض الأحيان خيراً من الربح .

ونظرت إليه الصبية نظرة ملؤها البغضاء ، لقد كانت تكره

الرجل ، ولكنها كانت تحس أن لديه قدرة ليست فى غيره من الناس ، ولم يأبه الرجل لنظرتها ، واستمر فى حديثه :

– على أية حال ، إذا كنت تظنين أن الحياه هى ربح المال فانى أستطيع أن أعلمك كيف تربحين دائماً ، سأجعلك من أمهر وأقوى لاعبى الورق ، وسأجعل المال يتدفق من بين أصابعك .

وبدا فى عينى الفتاة الصغيرة بريق الطمع والجشع ، لقد كانت تحس أنها فى حاجة إلى الرجل ، وتشعر أنه يستطيع أن يدفعها خارج تلك البؤرة إلى حيث الهواء والنور ...

ولن تكون بعد ذلك فى حاجة إليه ، فستعرف كيف تسير وحدها وكيف تشق طريقها دون حاجة إلى معاونة ، هى لاتريد منه غير دفعة واحدة فى بادئ الأمر ، دفعة واحدة منه ستجعلها تسير بلا توقف حتى تبلغ القمة .

وعاد الرجل يتمم حديثه فى همسات نفذت إلى سمع الفتاة كأنها السهام :

– اصغى إلّى .. إنى أستطيع أن أعلمك كثيراً ، وكثيراً جداً ، قد يحتاج الأمر إلى بعض الوقت ، ولكنى سأصنع منك فى النهاية معجزة تتحدث بها الأجيال القادمة ، سأنشئ لك ملهى خاصا جديراً بك ، وسأبدأ فى إنشائه عندما أبدأ فى إنشائك وسأنتهى منكما سويا ، وسأرى الناس بعد ذلك العجب العجاب .

وبدأ الرجل فى خلق الصبية ، وأخذ يعلمها القراءة والكتابة ،

وعلمها كيف تأكل وكيف تسير ، وكيف تجلس وكيف تتحدث ، وبذلت الصبية كل ما تستطيعه من جهد ، فقد كانت تستحث اليوم الذى تستطيع أن تشعر فيه أنها فى غنى عن الرجل .

ومرت الأيام فاذا بالصبية قد أضحت فتاة بارعة الحسن فاتنة ساحرة ، واصطحبها الرجل إلى المحافل والمجتمعات ، فأثار بها العجب ، وأدار الرءوس ... وأحست الفتاة أن الرجل قد علمها كثيراً ، بل أكثر مما كانت تتصور ، فقد كان قديراً فى كل شئ ، عالماً بكل ناحية من نواحى الحياة ، ولم تجد الفتاة به من نقص إلا فى طريقة تفكيره فى بعض الأحيان عندما كان يحاول أن يلقنها ما يسميه بالأفكار السامية ، وعندما يحاول أن يغرس فى نفسها ما يدعوه حب الناس ، والثقة فيهم .. لقد كان سخيفاً أبله .. وفى الواقع لم يكن يحيرها فيه إلا محاولته أن يعطيها كل شئ دون أن يطلب منها شيئاً ... ولكنها كانت تكره منه ذلك ، فقد كانت لاتقبل حسنة من أحد ، وكانت مصممة فى نفسها على أن ترد له كل ما أعطى ، بل إنها بدأت فعلا ترد الأقساط الأولى عندما تجمع لديها بعض المال من أرباح اللعب وكان الرجل يأخذ المال منها ... وقد بدت عليه علامات السخرية والأسف .

وتم بناء الملهى الكبير ، وكان الرجل قد باع كل ما يملك فى سبيل تشيده ، فجاء آية من آيات الفن ، وبدعة من بدع العصر ..

وفى نفس الوقت كان الرجل قد أتم خلق الفتاة ، فأصبحت نموذجاً ... فما كان هناك شئ إلا وقد أتقنته إلى حد الإعجاز .

وذهب بها الرجل إلى هناك لأول مرة ، فذهلت الفتاة ، وسارت تختال فى حجراته واعتلت المسرح وأخذت ترقص فى فرح جنونى .

ولكن فرحها لم يطل ، فقد علا وجهها حزن فجائى . وساءلت نفسها : ما قيمة كل هذا لها إن لم تكن هى مالكته إن هذا الرجل الذى شيده لها يستطيع أن يطردها منه فى غمضة عين فتعود إلى حانة أبيها المظلمة .. كم تود لو استطاعت أن تبتاعه منه ، فتكون فيه الآمرة الناهية دون شريك أو منازع .

ولمح الرجل على وجهها آيات الوجوم فسألها ما بها ، فأجابته فى حنق :

– لابد أن أبتاع هذا الملهى فى يوم ما .

وتبين الرجل ما فى رأس الفتاة من شكوك وتذكر يوم أعطاها الثوب وهى صبية ونظر إليها فى أسف ثم قال :

– يخيل إلىّ أننى لم أستطع أن أعلمك شيئاً بعد .. ما قيمة أن أعلمك كيف تقرئين وتكتبين وتتحدثين وتسيرين ، وتغنين وترقصين ، إذا لم أستطع أن أعلمك شيئاً أعمق من ذلك .. إذا لم أستطع أن أهذب ذلك الخلق الذى تعلمته من أبيك ومن رواد الحانة ، خلق الشر واللؤم والريبة والشك .

وأدار الرجل ظهره للفتاة وغادر الملهى ، ووصلت إلى سمعه ألفاظ فاهت بها الفتاة : « أحمق ، مخرف ! » .

وافتتح الملهى ، فأقبل الناس عليه إقبالا منقطع النظير ... ورأى الرجل أن تلك الصورة التى كان يرسمها للفتاة فى رأسه قد تحققت بحذافيرها ، وأن الفتاة قد أصبحت حقاً أعجوبة الزمن .

وفى ذات يوم جلست الفتاة تتحدث مع أمها ، فقالت الأخيرة :

– إن الناس يتحدثون عن غرام الرجل بك .

حديث خرافة ! .

– خرافة .. أو غير خرافة .. ذلك هو حديثهم على أية حال .

وفكرت الفتاة برهة ، ثم برقت عيناها بالفرح ، لقد كانت هذه هى خير فرصة لابتياع الملهى والانفصال عن الرجل والتخلص من رفقته ، نعم لابد لها من أن تسير وحدها من اليوم .

والتقت بالرجل ، فاستطاع أن يقرأ فى وجهها ما تنوى قوله ، وعصف الحزن بنفسه ، ولكنه لم يبد على وجهه شىء منه ، وعجل هو بالحديث قبل أن تبدأ هى به ، فقال فى هدوء :

– يخيل إلىّ أنه لم يعد بك حاجة إلىّ ، فقد انتهى دورى معك ، لقد صنعت لك كل ما يمكننى صنعه ، وأشعر أنه خير لى ولك أن نفترق ، سأهبك الملهى بم فيه .. إنى أعلم مبلغ لهفتك للحصول عليه ، حسناً ، لك أن تقرّى به عيناً ، فهو ملكك من الآن .

ووجمت الفتاة ، وأذهلها قول الرجل ، ولم تدر أيهما الفائز ... لقد كانت تود أن تحصل على الملهى ، وأن تفارق الرجل . ولكنه خيل إليها أنه استطاع إذلالها ، وتذكرت حادثة الثوب الذى وهبه لها فى صباها فصاحت به حانقة :

– إنى لا أقبل منك هبة ، سأبتاعه منك فإن لدىّ بعض المال ، وسأدفع الباقى على مرّ الأيام ، أو تستطيع أن تقامر عليه إذا شئت ، فإن ربحت فسآخذه منك ، وإن ربحت أنت فإنى وما أملك ملكا لك .

وأجابها الرجل بحده :

– كلا ، هذه المرة سأرغمك على أخذ الهبة . أنا أعرف أنك تتلهفين عليه .. ولن أمكنك من أخذه إلا منحة وهبة سأترك لك كل شئ وسأغادرك إلى حيث لا رجعة .

واختفى الرجل بعد ذلك فلم يعد يبصر به أحد ، وعلم الناس أن الفتاة قد أضحت صاحبة الملهى الكبير ، وشعرت الفتاة بالكبرياء تملأ نفسها عندما ظهرت أمام الجماهير لأول مرة بعد ذهاب الرجل ، فقد كانت تحس أنها قد أضحت ملك نفسها ، وعادت إلى الحجرة لتغير ملابسها وقد تصاعد إلى آذانها هتاف الجماهير وضجتهم ، فملأ الزهو نفسها إذ شعرت أنها تستطيع السير وحدها .

وعندما ذهبت الجماهير وساد الظلام الملهى ، أحست الفتاة

لأول مرة بوحشه شديدة ، وخيل إليها أن الرجل قد ترك خلفه فراغاً لايمكن لغير أن يملأه ، بقوامه الطويل ، وصوته الأجش ، وضحكاته الرنانة .

ومرت الأيام فعادت إلى الفتاة ثقتها بنفسها وتعودت أن تدير الملهى بمفردها دون حاجة إلى أن يكون بجانبها أحد ، ولكنها استمرت تشعر كل مساء بالوحشة إلى الرجل وكانت تسمع بين آونة وأخرى أنه يتردى فى مهاوى الفاقة والبؤس .. ثم بدأت تسمع أنه قد بدأ يعود إلى مركزه مرة ثانية ، وأنه أخذ يرتفع رويداً رويداً .

وكان أكثر مايحزنها عندما تخلد إلى نفسها ، أن الرجل ليس فى حاجة إليها ، وأنه استطاع أن يتركها بمثل هذه السهولة وينساها كأنها لم تكن شيئاً فى حياته ... لعنة الله على هؤلاء الناس .. كيف كانوا يدعون أن الرجل مغرم بها ، وهو قد استطاع أن يطرحه خلفه دون أن يلقى إليها بنظرة واحدة ! .

وفى ذات يوم دخل الملهى رجل طويل قد اتشح بعباءة فضفاضة ، وأحست الفتاة بضربات قلبها تشتد ، فقد كانت لاتخطئ هيكل الرجل قط ، ورنت بين الجدران ضحكاته ، واقترب منها وحياها فى هدوء ورقة .

وردت الفتاة ضاحكة ، وأخرج الرجل من عباءته كيسا مليئا بالذهب ووضعه على المناضد وسألها أن تلعب معه .

وبدأ الاثنان في اللعب ، والتفت الجماهير حولهما رويداً رويداً ، حتى لم يبق في الملهى كائن إلا وقد إشرأب إليهما ببصره .

ولأول مرة في حياتها بدأت تربح منه .. وأخذ كيس الذهب يتناقص شيئا فشيأ .. وفجأة سألها الرجل :

– ما رأيك في اللعب على كل ما نملك .. إذا ربحت فلك هذا الكيس وهو كل ما لدىّ .. وإذا ربحت أنا فلى الملهى بكل ما فيه ، حتى أنت .

وصمتت الفتاة برهة ثم أجابته هامسة :

– حسناً .. ليكن ما تريد .

– تذكرى .. أنى سآخذ كل ما فيه حتى أنت !

وبدآ فى اللعب ، وكتم الناس أنفاسهم ، وأمسك الرجل بأوراقه فى يديه لحظة ، ثم ألقى بها إلى المنضدة ، ثم ألقت الفتاة أوراقها ، فإذا بالرجل قد ربح ، وذهل الناس وضجوا بالصياح .

ونظر الرجل إلى وجه الفتاة .. ولم يكن أسهل عليه من قراءة ما فى رأسها ، فأصابه الدهش ، إذ أدرك أن الفتاة قد تعمدت الخسارة ، وبدأ عليه الحنق والخجل وسألها هامساً :

– لِمَ فعلت ذلك ؟

– ألم تذكر لى ذات يوم أن الخسارة فى بعض الأحيان قد تكون خيراً من الربح ؟

ونظر الرجل ملياً إلى عينيها وخيل إليه أنه يسبح فى عالم جميل ملىء بالنشوة وعاد يهمس إليها :

– أتقولين الحق !؟

– كل الحق .

وعندما انصرفت الجماهير وسادت الظلمة الملهى ، أحست الفتاة أنه لم يعد هناك ظلمة ولا وحشة .. وأحس الرجل أنه لم يفشل فى خلق الفتاة كما ود أن تكون .

★ ★ ★

شجرة العشاق

أنضر الـــــورد وأبهـــــاه نمـــــا
حيث روّى الأرض مدفون دما

كـــانت الخيل تخب بنا خباً فى الطريق الجبلى .. وكانت العربة تتأرجح بنا وتهتز .. وكان المنظر حولنا يبدو فاتنا خلاباً ... إذ كانت الجبال الصخرية العالية تشرف على جانب الطريق ، وانحنت العربة فى أحد المنعطفات ... فبدا أمامنا منظر رائع .. إذ رأينا شجرتين باسقتين تطاولان السماء وقد نبتتا فى الصخور التى تبدو من بعيد فى الهاوية السحيقة ، ونمت فروعهما وتعانقت .. ثم أخذت فى الارتفاع حتى بلغت قمة الصخرة التى فى أعلى الجبل ، خيلّ إلىّ أنها لو امتدت قليلا لمست السماء، واخترقت السحب .

ورأى صاحبى ما بدا علىّ من ذهول وإعجاب فقال :

– لاشك أن شجرة العشاق هى سبب عجبك وذهولك .

– شجرة العشاق ؟ ! ! أهذا هو ما تطلقونه على هاتين الشجرتين المتعانقين ؟

– نحن هنا نعتبرهما شجرة واحدة وأن لها أسطورة عجيبة ... قد تكون خرافة ، ولكن القوم هنا توارثوها عن أجدادهم ، وهم يؤكدون أنها حقيقة لاغبار عليها .

– إذاً هاتها .. نقطع بها وقتنا ، وتذهب عنا ملل الطريق .

وبدأ صاحبى يقص علىّ قصة شجرة العشاق ... وقال :

* * *

لم يكن هناك من يفطن إلى أن تلك اللعبة المحببة إلى الصبى فى طفولته ستصبح يوماً ما مهنته التى يرتزق منها فى مقتبل حياته ، وما كان ليخطر على بال أحد أن ذلك الصبى الجميل العابث سيصير شيخاً لقطاع الطرق وزعيما للصوص .

ولم يكن يلذ له وهو فى طفولته شئ قدر أن ينصب من نفسه رئيساً « للحرامية » عندما يجتمع وأطفال الناحية ليلعبوا لعبة « عسكر وحرامية » وما زال يذكر حتى الآن مقدار سروره عندما كان ينجح فى الايقاع « بالعسكر » فيوسعهم ضرباً ولكماً ويعيدهم إلى أمهاتهم متورمة عيونهم دامية أنوفهم .

وما كان أشبه يومه بأمسه وحاضره بماضيه .. لقد كان يكرر اليوم ما فعله بالأمس .. لافرق بين العملين ، الا أن هزل الأمس قد أضحى جد اليوم .. ومزحة الطفولة قد باتت مهنة الشباب ، وحتى هذا الخلاف بين ماضيه وحاضره لايكاد يحس به هو .. لأنه لم يكن فى أية لحظة من لحظات حياته جاداً فى شئ .. فهو أبداً هازل ماجن ... يتخذ من كل شئ ملهاة تسليه ومزحة تضحكه ... فهو لايرى أبداً إلا ضاحك السن ، باسم الثغر ، يهز المرح أعطافه ، ويملأ الطرب جوانحه ، وهو لايشعر فى مهنته بأية

غضاضة أو امتهان ولا يعترف أبداً بأنها مهنة غير شريفة ، ولا يرى فيها أمراً إداً أو فعلا نكراً ... ما دام لايريق فيها قطرة دم وما دام لايستبيح عرضاً ولا ينتهك حرمة ... بل إنه ليعتبر نفسه يؤدى عملا جليلا خيراً ، فهو لايأخذ من الناس إلا الفائض من النقود .. التى لو تركها لهم لأغرتهم بفعل المنكر وارتكاب الشر أو لخزنوها فى باطن الأرض من فرط الحرص والبخل وانطوى عليها الزمن فما استفادوا منها ولا أفادوا .. وهو لا يأخذ لنفسه من تلك النقود إلا ما يكفيه ليتناول وجبة هنيئة وبضعة كؤوس من الخمر تبعث فى رأسه النشوة .. اما النساء فما كان به من حاجة إلى النقود لصيدهن إذ كن يقعن فى يده بلا ثمن .

كان الفتى يضطجع ذات صباح فوق إحدى الصخور المشرفة على الطريق الجبلى حيث يكثر الصيد ، وكانت أشعة الشمس قد بدأت تعلو فى الأفق وتسرى بين الأشجار فتبدد بحرارتها برودة الليل ورطوبته ، وتمطى الفتى وتثاءب ، ثم ضرب بكفه عدة ضربات على صدره ، وارتسمت على وجهه أبلغ آيات الغبطة والرضا .. وأحس إن الحياة جميلة وأن كل ما فيها مبهج سار .

كان الفتى يبصر الدنيا من خلال منظار صنع من قوس قزح . فهو يرى كل ما فيها منمقاً مزركشاً لاتشوبه شائبة من كدر ، وكان سر سعادته وغبطته كائناً فى نفسه .. كامناً فى قلبه ، وكانت الفتنة تنعكس من نفسه على بقية الكائنات فلا يبدو له منها إلا الناحية البراقة الخلابة .

نظر الفتى أمامه إلى الأفق البعيد ، وأحس بذهنه يجرى به القهقرى إلى عدة سنوات خلت ، وطافت برأسه ذكريات طفولته .. فصدرت منه ضحكة خافتة بعدها حوله خشية أن يكون قد رآه أحد بالجنون .. تذكر الفتى ذلك القناع الذى لم يكن يفارق وجهه وهو طفل فى الخامسة ، وتذكر مسدس « الكبسول » الذى لم يكن يفارق جيبه .. وتذكر كيف تسلق ذات ليلة إحدى أنابيب المياه ودخل حجرة جده من النافذة ، وصاح به « ارفع ... » فصرخ العجوز مستنجداً بمن فى البيت وكاد يغشى من فرط الخوف ، وكانت نتيجة ذلك « علقة » مازال أثرها باقياً إلى الآن فى جسده .

وتذكر كيف حاول ذات مرة أن يسرق « كتاكيت » الجيران فقفز إلى سطح المنزل المجاور ، وعبأ « الكتاكيت » فى قدر صغير ، وعاد بها الى داره فزلت قدمه فى عودته وكسرت ساقه وماتت « الكتاكيت » مخنوقة فى القدر .

وأفاق الفتى فجأة من تفكيره على ضجيج عجلات قد أقبلت تنهب الطريق فقفز من مكانه وأسرع الى جواده فامتطاه وانساب به تجاه العربة المقبلة ، واختفى الفتى فى منعطف صغير ، وما كادت العربة تقترب حتى ظهر أمامها فجأة وأشهر غدارته فى وجه السائق آمراً إياه بالوقوف ، ولم يبد على السائق العجوز أنه ارتاع لمنظر الفتى بل نظر إليه ببرود وقال له بتهكم وسخرية :

– افسح الطريق ... فقد سبقك زملاؤك الأشرار فالتهموا من الصيد شحمه ولحمه ، ولم يبق إلا جلده والعظم .

ودهش الفتى ولكنه أجاب السائق فى غضب :

صه يا عجوز النحس ، ولا تتدخل فى شئون أسيادك الأشراف .

ثم تقدم الفتى ومد رأسه داخل النافذة فأبصر بها ثلاث نساء بدا عليهن الخوف والارتياع ، وطفلا رضيعاً قد ملأ العربة صراخا وعويلا ، ودهش الفتى وهز رأسه متسائلا فأجابته إحداهن فى صوت مرتعد .

– لقد هاجمنا ثلاثة رجال مقنعين وسلبونا النقود والحلى ، وجردونا من كل ما نملك .. حتى وعاء اللبن الذى يرضع منه الطفل قد سلبوه .

وتراجع الفتى قليلا وبدا عليه الامتعاض وفكر برهة ثم أحنى رأسه للنساء وأجابهن :

– لحظة واحدة ، وسأعود إليكن بكل ما سلب منكن .

وانطلق الفتى بجواده فى الطريق ثم انحنى فجأة فى منعطف بين الصخور ووقف أمام كوخ صغير ثم ترجل ونفذ إلى داخل الكوخ ، وهناك وجد الرجال الثلاثة قد افترشوا الأرض يقتسمون الغنائم . فصاح بهم وقد استشاط غضباً :

– ألم أحرم عليكم مثل هذا الصيد الهين اللين ، والغنيمة السهلة الباردة ... يالكم من أنذال جبناء ! !

ومد يده فجمع كل ما سلبه الأشقياء ووضعه فى حقيبة صغيرة ، وهم بالعودة ، ولكنه تذكر وعاء اللبن فالتفت إليهم وصاح :

– أين زجاجة اللبن ؟

وساد الصمت برهة ... ثم مد أحدهم يده فى جيبه وأخرج الزجاجة ، وأغرق الفتى فى الضحك وصاح بالرجل .

– أيها الغبى .. ماحاجتك بها ، أتريد أن تعود رضيعاً مرة أخرى ! !

وأجابه الرجل فى أسف وخيبة أمل :

– لقد أوصتنى امرأتى بأن أحضر لها واحدة مثلها لطفلها الرضيع .

ومد الفتى يده فى الحقيبة وأعطاه بضعه نقود وأمره أن يبتاع واحدة ، ثم أعطى بضعة نقود للرجلين الآخرين وأخذ مثلها لنفسه وقال لأصحابه .

– يكفى هذا لإطعامنا اليوم .

– ثم قفز جواده ، وبعد لحظة كان أمام نافذة العربة ينحنى باحترام ويمد يده بالحقيبة ، وزجاجة اللبن ، ودهشت النساء وبدا على وجوههن فرح لايوصف ولم يدرين كيف يشكرنه على جميل صنعه .

وهمّ الفتى بالعودة ولكن صغراهن نادته قائلة :

– لشد ما أخشى يا سيدى أن يعاود اللصوص الكرة مرة أخرى

فيسلبونا ما أعدت إلينا ... أفلا تكرمت بمرافقتنا حتى نستطيع أن نأمن على أنفسنا من غائلة الأشرار ؟ !

– ليسوا أشراراً كما تتصورين ، فكل ما يفعلونه هو اكتساب الرزق وقد يكون في مهاجمتهم لكم شيء من النذالة ، ولكن المسألة لم تعد خطأ فى التقدير أو مخالفة للأوامر .

وسار الفتى بصحبة العربة ، وعلم فى الطريق أن النساء الثلاث أختان وخادمتهما ، وأن الفتاة التى دعته لمرافقتهن هى الأخت الصغرى ، ولم يكن فى نية الفتى أن يدخل معهن فى دور غرام أو غزل .. إذ لم يكن فيهن ما يستثيره أو ينشيه ولم يكن بهن جمال صارخ أو فتنة أخاذة ، ولكنه .. رويداً رويداً ، وجد نفسه ينزلق فى حبائل الصغرى ... فلم يكد يصل إلى نهاية الطريق حتى وجد نفسه يحس اللوعة لفرقتها ويود لو استمر فى السير معها إلى ما لانهاية .

كانت الفتاة من ذلك النوع الذى يراه الإنسان فلا يأبه له ، أو على الأقل لا يذهل ولا يشده ، وكان وجهها بسيطاً لاشيء عجيباً فيه ، ولكنه كان أشبه بالسهل الممتنع ... أو كان أشبه بالمغناطيس كلما ازددنا قرباً منه ازداد جذباً لنا ، حتى إذا ما التصقنا به تعذر علينا فراقه وأصبحنا قطعة منه .

كان حديثها عذباً وصوتها نفاذاً إلى أعماق القلوب ، وعيناها بريئتين صافيتين ، وبشرتها نقيه بضة ، كأنها طفلة صغيرة ، وكان

لوجهها عذوبة لايستطيع المرء أن يدرك منبعها ، ولكنه يحس بها تفيض عليه ، ويشعر بجوارها كأنه سابح في بحر من الفتنة والجمال .

وقبل أن يعود الفتى سألته الفتاة عن اسمه ، فأجابها ، ثم سألته عن مهنته وموطنه .. فأجابها ضاحكاً :

– قاطع طريق ، وموطني فوق أعلى صخرة تشرف على الطريق .

– أتهزل ؟

– بل أنا جاد ، وأى عجب فى أن أكون كذلك ؟

وابتعدت العربة والفتى يشيعها بأنظاره وهو يفكر حائراً ......

هذه الفتاة .. أو على الأصح هذه الطفلة الكبيرة .. قد فعلت فى رأسه مالم يفعله أجود أنواع الخمر مضافاً إليها أجود أنواع النساء ، ولكن أى فائدة فى التفكير فيها ، وهى أبعد الناس عنه وعن التفكير فيه ... أى صلة هناك بين فتاة طاهرة بريئة ، وبين قاطع طريق .. إلا إذا كان هناك صلة بين إبليس والجنة .

وهز رأسه فى أسف وحدث نفسه .

– لا فائدة .. إنها لن تنزل إليه ، ولا هو بصاعد إليها . هى لا ترضيها حياته الشاقة الصاخبة ، وهو لاترضيه إلا هذه الحياة .. فعبثاً بأمل .

ووكز جواده عائداً أدراجه ، وعلا صوت غنائه يتردد فى الطريق المقفر ، وامحت الفتاة من ذاكرته .

ومرّت الأيام بالفتى وهو هادئ فى مستقره .. مرح طروب ناعم البال لايكدر حياته كدر ... كما كان تماماً فى طفولته .. لايخيفه رجال الشرطة .. إلا بقدر ما كان يخيفه « العسكر » فى لعبة « عسكر وحرامية » ... فهو أبداً دائم الإيقاع بهم والسخرية منهم ، وهو يشعر نحوهم بنوع من الود والصداقة ، فهم دائماً مبعث تسليته ، وهو يحس أن حياته كان يمكن أن تكون أقل متعة وأكثر كآبة لو كفوا عن مطاردته وأحجموا عن تعقبه .

وفى ذات يوم كان صاحبنا يجلس فى مضجعه فوق الصخرة قبيل الغسق ، فإذا به يسمع صهيل خيل وضجيج عربات آتية .. فقفز من مكانه وعدا بجواده ليستقبل الصيد .. فقد نم عليه صوته أنه صيد وافر مكتنز ، وأصدر الفتى صفيراً طويلا فظهر من بين الصخور عدة رجال كأنهم كانوا على أهبة .

وبدت فى الطريق عربة مطهمة ، ولم يكن هناك شك أنها كانت تحمل أحد الأثرياء فقد ظهرت عليها الفخامة والروعة .

واعترض الرجال طريق العربة شاهرين أسلحتهم ، وتقدم الفتى إلى النافذة يطلب من ركابها تسليم ما معهم .... ولكنه لم يكد يبصر من بداخلها حتى تراجع مأخوذاً .

لقد وجد فتاته الساحرة وقد علت شفتيها بسمة تذيب أحزان الدنيا .

كانت الفتاة مازالت تذكر الفتى .. بل إنها ما نسيته قط ، رغم أنها كانت تدرك تماماً أن من العبث التعلق به ، فقد كان فى نظرها لايعدو أن يكون بطلا من أبطال القصص وخرافة من خرافات الأساطير .

وخطبت الفتاة لكهل ثرى .. فلم تتمنع ، فقد كان هو وغيره سواء ..

وكان الزوجان فى طريقهما إلى قصر الرجل ليقضيا شهر العسل ، وألحت الفتاة على الرجل أن يسلكا الطريق الجبلى رغم خوف الرجل من قطاع الطرق ... فقد كانت الفتاة تتمنى أن ترى قاطع الطريق مرة ثانية .

ومرت لحظة صمت طويله .. كان الفتى ينظر خلالها إلى الفتاة مشدوهاً ، والزوج الحائر ينتفض من الخوف ، وقد بدأ يخرج ما لديه من أموال حتى يتقى شر اللصوص ، ولكنه ذهل عندما رأى الفتى يفتح باب العربة وينحنى باحترام ، ثم تقدم من الفتاة وأمسك بيدها يقبلها فى خشوع ثم جذبها فى رفق وأنزلها من العربة .

وجحظت عينا الكهل ، وفغر من العجب فاه ، ولكن الفتى أشار إشارة تهدئه وقال يطمئنه :

– لاتخف أيها السيد ... فلن يلحق بكِ أذى ، إنى لا أريد منك شيئا سوى أن تسمح لى بالرقص مع السيدة .

وأمسك الفتى بيد الفتاة وبدأ فى الرقص والغناء ، وبعد برهة أخرج أحد رجاله صفارة من جيبه وأنشد لحناً أطرب القوم وهز أعطافهم ، فتماسكوا وتخاصروا وانهمكوا فى الرقص .

ووقف الكهل غير مصدق أن ما أمامه حقيقة واقعة ، وأقسم فى نفسه أن القوم ذوو جنة ، ولكنه مع ذلك لم يسعه إلا أن يشهد المنظر حتى نهايته .

وطال الرقص بالقوم واستخفهم الطرب . حتى لم يعد العجوز يتصور أنه فى جبل مقفر وبين عصابة من قطاع الطرق ، بل خيل أنه فى حفل زفاف وليلة عرس وأن هذا الجمع الحاشد لم يقصد قط أن يسلبه نقوده .. بل قصدوا تسليته وإدخال السرور على نفسه ، ولم يعد ينقص المنظر شئ سوى أن تصف الموائد وتدار الكؤوس ، وتعلق الزينات فوق الصخور ويفرش الطريق بالطنافس .

وأخير أبعد كل الفتى والفتاة ... قبل يدها فى رفق وقادها نحو العربة .. ثم التفت إلى الرجل المذهول وانحنى أمامه فى احترام ثم قال له :

– أشكرك يا سيدى أجزل الشكر .

وتحركت العربة ووقف الفتى يشيعها ببصره . ورأى رأس الفتاة

الجميلة يطل من النافذة ثم تلوح له بيدها وظلت العربة تتضاءل حتى طواها الأفق .

وشعر الفتى بعد ذلك بألم الحرمان والوحدة وأحس أن الدنيا من حوله قد أصابها حلكة دامسة .

لقد أصابه يأس شديد ، إذ بات يشعر أن الفتاة شئ لازم له لزوم الماء والغذاء والهواء .

كانت المرة الأولى التي شعر فيها بالحب ، وبالحرمان .

كان دائماً بلا أمل ... فلما لاح له الأمل ، لاح مفقوداً .

وعجب القوم بعد ذلك للفتي كيف تبدل مرحه وجوماً وإطراقاً . وكيف انطوى على نفسه فأصابه الذهول . والشرود ، وأدمن على الخمر فلم يكن ليثوب إلى رشده لحظة واحدة ، وبدأ ذكاؤه يخبو وقوته تضمحل ، ولم يكن يفارق الحان إلا وقد سقط من فرط الشراب .. فيحمله رجاله ويعودون به إلى مضجعه بجوار الصخرة كأنه خرقة بالية .

ووشى به واش إلى رجال الشرطة الذين كانوا يتلهفون على القبض عليه بعد أن أعياهم وأقض مضجعهم ، وذات يوم أفاق الفتى من نومه فإذا بثلة من الجند تحيط به ، وقد شهروا سيوفهم وغداراتهم ، ولكنه نظر إليهم فى سكون وهدوء ، ولم يبد أية مقاومة ، وانقاد إليهم في يأس واستسلام ، وذلة ومسكنة ، وتقدم أمامهم بجوار الصخرة فى أعلى الجبل .

لقد كان يحس أنه لاشئ هناك يستحق منه الجهد .

وعلى حين غرة وجد الجند أسيرهم قد ثبت فى مكانه وأرهف أذنيه ... ثم سمعوا صوت عربة قادمة فى الطريق وأبصروا العربة تتمهل قليلا ثم تقف ولمحوا من مكانهم فى قمة الجبل شبح امرأة تهبط منها وتحدق ببصرها فى الصخرة العالية .

كانت الفتاة الساحرة قد عادت إلى الطريق مرة أخرى فقد أصيب زوجها بمرض لم يمهله إلا قليلا ، وكان قاطع الطريق قد ملك عليها مشاعرها .. فوجدت نفسها تنطلق من حيث لاتدرى إلى الطريق الجبلى .. فقد كانت مجنونة به متلهفة على رؤيته ، وأبصر بها الفتى .. فذهب عنه جموده وشروده ، وشعر بالحرارة تسرى فى دمائه وبالحياة تدب فى جسدة مره أخرى .

وقفز الفتى بينهم قفزة هائلة وأخذ يعدو على قمة الجبل متجهاً إلى الفتاة ، وأفاق الشرطة من ذهولهم . فرفع أحدهم غدارته وصوّبها إلى الفتى ، فأصاب الهدف .

وترنح الفتى وتأرجحت جثته .. ثم سقطت فى الهاوية التى فى الجانب الآخر من الجبل .

وصرخت الفتاة صرخة مدوية ، وانطلقت لاهثة إلى المكان الذى سقط فيه الفتى وحملقت فى الهاوية بعينين جاحظتين .. ثم ألقت بنفسها فى الهاوية ولحقت بصاحبها .

ومنذ ذلك الحين شاهد الناس شجرتين تنبتان فى الصخور التى

فى أسفل الهاوية . ونمت الشجرتان مع الزمن ، وتعانقت أغصانهما وعلت فروعهما حتى وصلت أطرافهما إلى تلك الصخرة العالية ، وسموها شجرة العشاق .

ويعتقد القوم هنا أن الشجرتين قد أنبتتهما دماء العاشقين إذ لم يحدث أن نمت شجرتان غيرهما بين الصخور فى تلك المنطقة ....

وصمت صاحبى ، وتلفت خلفى فإذا بأطراف الشجرتين تعبث بهما ريح خفيفة فتهز أغصانهما فى زرقة السماء ، وخيل إلَّى أنى أكاد أبصر منهما روحى العاشقين تتعانقان ، ولكنى عدت إلى نفسى والتفت إلى صاحبى قائلا :

– ما أوسع خيال الإنسان وما أقدره على ابتكار أحاديث الهوى وأقاصيص الغرام .. كل شئ عنده يرى إلى العشق مرجعه ، ومن الحب منبته وإليه مآله ومنتهاه .

* * *

وادى القلوب المحطمة

أجل ! . ما من زواج تم في وادى القلوب المحطمة إلا وأعقبته كارثة تورث النفوس حسرة ولوعة .

جمعتنى وإياه على الشاطئ ربوة عالية كستها الخضرة ، وظللتها شجرة هرمة كأنها والزمن صنوان ، وكان الوقت قبيل الأصيل وقد أشرفنا من مجلسنا على مغرب الشمس وقد أخذت تهبط في الأفق حتى غمرتها بمياه النهر فبدت كأنها جمرة متأججة توشك أن تخبو .. وبدت من خلفنتا الكروم الممتدة فى الوادى الخصب تتخللها أشجار البرتقال والليمون وقد حملت إلينا النسمات شذى عطر يفوح أزهارها البيضاء .

ونظرت إلى الرجل وقد اتكأ بظهره على مقعده وأخذ يهز ساقيه هزات منتظمة ، وأطلق بصره فى الأفق البعيد ، وشاعت فى وجهه علامات الغبطة والزهو وقال مستضحكا :

قلت لك إن هذا كان اسمه حتى صادفتها .. فمسه ومسنى منها سحر بدلنا وخلقنا جديداً .. لقد أصبح اسمه بعد ذلك « وادى القلوب السعيدة » ... وأصبحت أنا رجلا سعيداً .

منذ بضع سنين كان هذا الوادى خراباً بلقعاً .. وكنت أعمل بالتدريس فى إحدى مدارس المدينة ، وكانت هى طالبة فى هذه

المدرسة . ورغم أن نوع جمالها قد جعلنى أميزها عن غيرها من الفتيات ، إلا أننى لم ألق إليها فى بادئ الأمر كثير اهتمام ... أولا ، لأن الظروف المحيطة بى وقتذاك كانت تجعلنى شديد الزهد فى أن أخوض معارك غرام .. شديد الرغبة فى أن أقى قلبى مزالق الهوى ومهاوى الحب ... وثانياً ، لأننى – حتى لو فشلت فى وقاية نفسى معارك الغرام – فلا أقل من أن أنأى بها عن ذلك الجو المدرسى فلا أجعلها تشتبك مع طالبة هى فى منزلة ابنتى أو هذا هو المفروض . وهكذا لم أحاول قط أن أظهر لها اهتماماً خاصاً .. وإن كنت لم أستطع أن أمنع نفسى من الضيق لغيبتها إذا غابت .. أو السرور بوجودها إذا ما حضرت فقد كانت تلك إحساسات خفية فى داخل نفسى لا أستطيع الوصول إليها أو التحكم فيها .. على أية حال لقد اعتبرتها مجرد شعور « استلطاف » لايستدعى من كثير انزعاج أو تفكير .

ولكن المسألة بدأت تتطور .. وبدأ ينشأ بيننا ذلك الود الصامت ... والصداقة التى نحس بها فى الصدور ، ولا تفصح عنها إلا نظرة أو بسمة تسرى بين الطرفين مسرى الكهرباء .

وفى ذات يوم كنت أشرح أحد دروس الجغرافيا . فذكرت فيما ذكرت هذه المنطقة وقلت لهن على سبيل التسلية إننى أعرف أن هذا الوادى يطلقون عليه اسم « وادى القلوب المحطمة » وأثار الاسم ضحكهن ولم يخل الأمر من أن يعلقن عليه ببعض النكات والتعليقات .

وفى نفس اليوم التقيت بالفتاة خارج المدرسة وكانت المرة الأولى التى ألتقى بها على حدة فتصافحنا .. وأحسست بمتعة شديدة عندما شعرت بها تسير بجوارى جنباً إلى جنب وكان حديثنا لايمكن أن يخرج عن المحيط الدراسى ... حتى سمعتها تسألنى ضاحكة ... هل رأيت وادى القلوب المحطمة ؟

فهزت رأسى بالإيجاب . فعادت تسأل :

– هل تعرف لم أطلقوا عليه هذا الاسم ؟ .

– إن لذلك قصة .   – قصة حب ؟

وترددت برهة قبل أن أجيب . لو قلنا قصة بغض فقد يكون التعبير أصح .. هل تودين سماعها ؟

– ذلك يتوقف على خاتمتها .. إن كانت محزنة فإنى زاهدة فى سماعها .. لأنى أحس بشئ من السعادة .. لا أود أن أفقده .

– إذا كان الأمر كذلك فلا داعى لقصها .

وكان فى صوتى رنة حزن جعلتها تعود فتطالبنى بقصها وتصر على ذلك وكنا قد وصلنا إلى إحدى الحدائق العامة فدلفنا إليهاوانتحينا ركناً هادئاً وبدأت أقص عليها القصة قائلا :

– إنها لعنة قديمة أطلقتها عجوز هندية فأصابت المكان وظلت به حتى يومنا هذا ، ولقد قالوا إن سبب اللعنة هو أن العجوز كانت لها ابنة تعمل خادمة عند سيد الوادى ، وكانت الفتاة أشبه بزهرة متفتحة أو عصفور مترنم ، يشع السحر من عينيها ويفيض الشهد

من فيها ... لاترى إلا مرحة ضاحكة جمة النشاط مجدة دؤوباً لاتكاد تشرق الشمس إلا وهي تسحب البقرة لتحلبها .. وتظل طيلة يومها فى عمل مستمر لا تهدأ ولا تستقر .. فكانت محل رضاء السيد الكهل وامرأته .. وموضع عطفهما ... حتى كان ذات يوم ذهب الرضاء وتطاير العطف ، وحل محلهما غضب شديد على الفتاة .

لقد أحب ابنهما الفتاة ... ابنهما الذى سيصبح سيد الوادى ، والذى سيرث تلك الأملاك الواسعة ، قد أحب الخادمة ! ... ولو قد حدث هذا الأمر فى وقتنا هذا لما كان بالشئ المستغرب ، ولما نظرنا إليه نظرتنا إلى شئ يستحيل وقوعه ، أو إلى جريمة تستحق العقاب .. لأن الحب أمر ليس للإنسان فيه قدرة الاختيار بل هو مقود مساق .. وما كان الفتى والأمر كذلك ليلام على وقوعه فى حب الفتاة ولكن السيد والسيدة هالهما الأمر ، وثارت ثائرتهما عندما أنبأهما بعزمه على الزواج من الفتاة ... وصمما على أن يطرداها شر طردة وأن يبعداها عن الوادى ويوقعا بها أقصى العقاب فقد اعتبراها مسئولة عن غواية ابنهما وإيقاعه فى شراكها .

وهجمت السيدة العجوز على الفتاة في حجرتها فكالت لها الشتائم والسباب وجردتها من ثيابها . ثم أقبل السيد فانهال عليها بسوطه حتى ألهب ظهرها ... وانطلقت الفتاة تعدو من الدار فزعة مرتعدة حتى وصلت الى أمها فسقطت أمامها مغشياً عليها .

وراع الأم ما حل بابنتها ، فرفعت كفيها إلى السماء ودعت الله أن يحطم قلوب أهل الوادى وذريتهم من بعدهم عقب كل زيجة تتم ، وأن يفجع كل زوج فى زوجته وكل زوجة فى زوجها وكل أب وأم فى بنيهما .

وسادت فترة سكون قطعتها الفتاة متسائلة :

– وهل استجيب الدعاء وحلت اللعنة ؟

– أجل .. فأصابت أول ما أصابت صاحبة اللعنة نفسها .. وكان أول قلب تحطم هو قلبها هى .

– ماذا تعنى .. وكيف ؟

– لقد فر الفتى ابن السيد .. وتزوج الفتاة رغم أبيه وأمه .. ولم تمض بضعة أسابيع .. حتى حلت اللعنة وماتت الفتاة بين ذراعى زوجها بعد أن أصيبت بلدغة أفعى .

وهل استمرت اللعنة ؟

– أجل .. لقد مرت السنون .. وفى أول زواج حدث فى العائلة بعد ذلك أنجب الزوجان طفلا قرت به عيناهما ولكنه لم يكد يبلغ الثالثة حتى سقط من النافذة ودق عنقه وجنت أمه الثكلى . وهكذا استمرت اللعنة تحطم قلوب القوم وتفجع نفوسهم جيلا بعد جيل .. فمرة تفر الزوجة مع عشيق لها .. ومرة يفر الزوج مع خادمته ، وثالث يلعب الموت دوره فيأخذهما ليترك الآخر كليم القلب مجروح الفؤاد .. أجل ما من زواج تم فى وادى القلوب المحطمة

إلا وأعقبته كارثة تورث النفوس حسرة ولوعة .. ترى هل أحزنتك القصة ؟

– لا أظن .. ولكن قل لى .. هل ينسب الناس كل تلك الكوارث التى حدثت فى الوادى إلى لعنة العجوز ؟ .

– طبعاً .. ولقد انتهى الأمر بصاحبه الأخير إلى هجره والفرار منه بعد أن تحطم فيه قلبه .. أجل .. لقد تركه لخادمه وأقسم ألا يعود إليه .. وأصبح الآن خادمه سيده .

– ولكن ماهى قصة الكارثة الأخيرة التى حدت بصاحب الوادى إلى هجره ؟

– كغيرها من الكوارث لا تخلف قليلا ولا كثيراً .. لقد أحب الرجل – أو هكذا خيل إليه – فتاه شقراء فاتنة ، وكان يرى فيها ملاكا طاهراً حتى تزوجها .

– يخيل إلىّ أنك تعرف الرجل جيداً .

– أجل لقد كنت أقرب الناس إليه .. أقرب مما تتصورين .. فأينما ذهب ذهبت ، وأينما ذهبت ذهب .. هل فهمت ؟ ! !
ونظرت إلىّ نظرة طويلة ثم هزت رأسها ببطء وقالت فى صوت خفيض .. أظن أننى فهمت .. قل ماذا حدث لصاحبك بعد أن تزوجها ؟

– حدث أمر فى غاية البساطة .. لقد كان لصاحبى هذا صديق عزيز لديه .. صديق طفولة وزميل صبا .. فدعاه فى ليلة عرسه ..

وفى الصباح عندما جلس لتناول الفطور .. لم يجد صاحبه ولم يجد زوجته .. لقد فر الاثنان ؟ .

– غير معقول ! .

– معقول أو غير معقول .. إن هذا هو ما حدث .. إنها لعنة العجوز قد حطمت قلب صاحبى ..

– ولكن لا أظنك يا سيدى تعتقد أنت الآخر أن لعنة العجوز لها دخل فى الأمر .. زوجة طائشة لاخلاق لها ولا وفاء .. وصديق أنانى استبدل بالوفاء خديعة وبالأمانة خيانة .. وزوج سليم النية ظن بهما خيراً فلم يعرف خبيثة نفسيهما وحطمت قلبه الواقعة .. مادخل لعنة العجوز فيما حدث ؟

وأحسست بشئ من الخجل وأصابنى الارتباك وشعرت أنها ترمقنى بنظراتها فلم أنبس ببنت شفة وأردفت هى تقول :

– قل لصاحبك إنه جبان لأنه فر من موطنه خوفاً من لعنة العجوز .. وقل له أن يتعلم كيف يختار امرأته وكيف يعطى قلبه لمن تستطيع صيانته .. لا لمن يطربها تحطيمه ! .

ونظرت إلى عينيها لأسبر غورها ولأنفذ إلى رأسها ، وقلت كأنما أحدث نفسى .. إن صاحبى لم يعد فى حاجة إلى من يقول له ذلك .. فلقد اختار فعلا .. ويخيل لى أنه لم يخطئ هذه المرة !

– إذا فماذا يبقه بعيداً عن موطنه ؟

– إنه يخشى ألا ترضى أن تعود معه .

– هل سألها ؟ – لا .

– ولم ؟ – إنه يخشى .

– يخشى ! .. ألم أقل لك إنه جبان .. ماذا يخشى من سؤالها .. هبها رفضت فلتذهب إلى حيث ألقت .. لأنها تكون لاتستحق حبه .. ويكون قد أخطأ فى الاختيار مرة أخرى .

والتقت عينانا ، فلم أستطع المقاومة ولمحت فيهما انتظاراً ولهفة ، لقد اتهمت صاحبى بالجبن ، وهى لاشك قد عرفت أن صاحبى هذا هو نفسى ، وهى تعيب علّى أننى لم أسألها .

واقتربت منها ، وكان المكان قد خلا إلا منى ومنها ، فأمسكت بوجهها الصغير بين كفى ، لقد طلبت منى أن أسألها فمددت شفتى وهمست فى شفتيها بالسؤال ، وأجابت سؤالى بنفس الطريقة همسة ولمسة من شفتيها .

وأحسست بيدها تضغط على يدى وسمعتها تقول :

– سأتحدى لعنة العجوز ، إن المسألة لاتحتاج إلا إلى شيئين حب ووفاء ، وسأستطيع بهما أن أقهر اللعنة ، وأن أجعل من وادى القلوب المحطمة ، وادياً للقلوب السعيدة .

وعدنا سوياً إلى الوادى ، فأصبح يا سيدى كما تراه ، لايكف

طيره عن الترنيم ، ولا زهوره عن الابتسام ، لقد مرت علينا ثلاث سنوات أنجبنا فيها طفلا وطفلة ، وإنى لأحس ، بالقناعة والرضا ، وأحمد الله على نعمته .

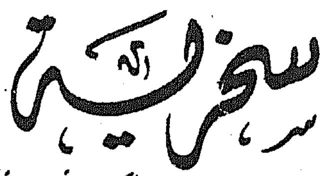
ولم يكن يتم قوله حتى رأينا دخاناً يتصاعد فى الهواء من ناحية الدار ، ورأيت وجه الرجل يكفر وبدا فى عينيه ذعر شديد فأصابتنى قشعريرة ، وقفز من مكانه صائحاً : « حريق » ! ! وانطلق يعدو إلى الدار كسهم مارق ، وانطلقت أعدو خلفه بكل قواى وتذكرت فى تلك اللحظة لعنة العجوز ولم أشك فى أنها خطرت برأسه ، وأنه قد خشى أن يكون حريق قد شب فى الدار فأصاب زوجته أو ولديه بسوء ، وانطلق كالمجنون لكى يبعد عنهم ذلك السوء .

وعندما وصلت إلى حديقة الدار كان الرجل قد اندفع إلى الداخل وأخفاه الدخان المتكاثف ، وبعد لحظة رأيت امرأته وولديه يقبلان من خارج الدار وقد روعهم الحريق وأحسست بفرحة شديدة عندما تبينت أنهم بخير ، وأنهم لم يكونوا داخل الدار ، وأخذت أصيح بالرجل لكى أنبئه بسلامتهم حتى يعود إلينا ، ولكنه لم يسمع ، لقد كان يعدو وسط النيران كالمجنون وهو ينادى امرأته وولديه .

وأخيراً خرج الرجل من الدار ولكنه لم يكن إلا جسداً أكلته النيران وأحرقه اللهب ، ومات الرجل ، ولم يكن موته هو الذى أوجع قلبى فما حزنت لشخص مات ، إنى أحسد الموتى على موتهم ، لأنى أرى فى موتهم نجاة لهم من حياة كلها تفاهات

وسخافات ، ولكن الذى روعنى حقاً ، هو تلك المرأة وولداها ، وقد بدا ثلاثتهم كأنهم تماثيل للوعة والأسى . أجل هذه القلوب الثلاثة البريئة المحطمة ، هى التى حطمتنى ، وأبكتنى .. هذه المرأة الشجاعة التى ظنت أنها تستطيع أن تقهر القدر بالحب والوفاء ، وقد جزاها القدر شر الجزاء ! !

★ ★ ★



ولكن شيئاً جديداً قد طرأ عليها .. شيئاً لم تستطع أن تحدد بالضبط إلى أين ينتهى بها . وإن كانت موقنة فى نفسها أنه لن يؤدى إلى خير ، فقد كان به نوع من المتعة وإن كانت متعة يائسة .

كـــان كل ما فى الكون مشرقاً متلألئا .. إلا قلبها فقد تكدست حوله الظلمات ، وضربت عليه حجاباً كثيفاً شديد السواد شديد الحلكة .. لايجد الضوء إليه سبيلا .. حتى باتت من فرط ما كان يملؤ نفسها من يأس وحزن .. كأنها بمعزل عما حولها ، فهى لاتكاد تبصر من خلال ذلك السياج المظلم الذى لف نفسها إلا كل عادية مضنية .

أجل لقد أمضها اليأس فجلست على حافة السفينة فى صمت وسكون ، لاتكاد تبصر تلك الشمس الوضاءة وقد انعكست أشعتها على صفحة الماء الأزرق الرجراج الذى لايعكر صفوه زبد ولا تقلق سكونه رياح هوج .

وكيف تشعر بهذا أو بذاك وفى جوفها ريح دائمة العصف عاتية قاسية ، وفى قلبها هزيم من الوعد ثائر حانق ، وفى نفسها سحائب معتمة لايلمع فيها البرق إلا كما تلمع لمحات الأمل الكاذب فى حلكات الخطوب ...

ترى ماذا أصاب الفتاة الصغيرة الرقيقة ، وما أوجع نفسها ؟ لقد جلست شاردة الذهن تائهة الفكر ، وقد طافت برأسها تلك الأيام الموحشة المريرة التى مرّت بها .. ثم قفز بها الذهن قفزة طويلة إلي بقعة بيضاء مشرقة ما زالت تلوح لها من ذلك الماضى الأسود .. رغم بعدها وقدم عهدها ، وأبصرت فيها وجهاً لم تكن تستطيع أن تميز فيه ملامحه تماماً ولكنها كانت تميز فيه عطفاً فياضاً ، وحناناً دافقاً ، وتسمع منه كلمات التدليل التى لم تسمعها قط من سواه .. لقد كان وجه أمها .. الباسم الرقيق ، وقد فقدتها وهى ما زالت طفلة صغيرة ... فقدت معها ذلك الصدر الدافئ الذي كان يحتويها ، وفقدت تلك العينين الصافيتين اللتين كانتا تفيضان بالحنان والرقة .

لقد تزوج أبوها بعد ذلك من أمرأة .. شتان ما بينها وبين أمها ... كانت أمها ينبوع حنان ، وكانت المرأة بركان بغضاء .. كانت الأولى حرارة تدفئ ، وكانت الثانية لهيباً يحرق ..

لقد ناصبتها العداء ، وهى طفلة غريرة لاتدرى من الحياة شيئاً ، وبدأتها بالكراهية بلا سبب ولا موجب ، وكم حاولت أن تتلمس فيها ليناً أو رقه . لتستعيض بها عن أمها الراحلة ، ولكن المرأة كانت شديدة الحقد خبيثة الطوية ، فكانت تتلمس لها الأخطاء لتوقع بها العقاب ، وتنكل بها تنكيلا .

وكانت المرأة تكره أن ترى من أبيها عطفاً عليها ورأفة بها ..

فكانت توغر صدره ضدها . وكانت تستثيره عليها بالأكاذيب والأباطيل .. حتى انتهى الأمر بأبيها إلى تجنبها وإهمالها كى يسترضى المرأة .

ومرّت الأيام فإذا بالفتاة تجد نفسها فى الدار كأنها خادمة ، وإذا بالمرأة تعلم بناتها كيف يكرهنها ويحتقرنها ، وكان يوجع نفس الفتاة أن ترى ذلك الفارق بينها وبين أخواتها فى كل شىء دون أن تحس أنها قد ارتكبت ذنباً أو فعلت ما تستحق عليه أن ينبذوها نبذ النواة .

ولم يكن كل ذلك ليوجعها قدر ما أوجعها ذلك الشئ الذى أصابها دون أن تدرى له سبباً ولا علة .. لقد بلغت الفتاة مبلغ الشباب دون أن يبرز لها ثديان ! .. ولم تكن لتأبه كثيراً لذلك الأمر ، لولا تلك السخرية التى كانت تلقاها من امرأة أبيها ومن أخواتها الصغار اللائى نضجت صدورهن واكتملت أنوثتهن .

ولطالما أسرفت عليها المرأة بجهلها وحمقها ، وتفننت فى أساليب السخرية منها ، فوصفتها بأنها كانت رجلا انعكس خلقه واختلط .. فانقلب مخلوقاً عجيباً بين الرجال والنساء ، وكانت كثيراً ما تنبئها أن لا أمل لها فى زواج ، وأنه يجب عليها أن توطن نفسها على العيش وحيدة .. فإن الرجال لايتزوجون رجالا .

ولم يكن هناك ما يحطم نفس الفتاة ويمزق قلبها قدر تلك الكلمات الساخرة اللاذعة التى كانت تقع عليها وقع السياط ،

وكانت تظهر لها الحياة موحشة كئيبة ، إذ تحس فيما بينها وبين نفسها أن كلام المرأة الساخرة قد يكون به كثير من صواب ، فما كان لها أن تتطلع إلى ما تهفو إليه نفس كل فتاة فى باكورة الحياة ومقتبل العمر .. فقد بخلت عليها الطبيعة بما تعوّدت أن تهبه غيرها من الإناث ، وحرمتها الشئ الذى تعتبره حقاً لها ، فهاهى ذى تبدو كأنها شئ شاذ بين الآدميين .. يغمرها الشعور بالنقص ، فانطوت على نفسها وطوت على الأحزان صدرها ... إذ لم تكن تلقى من تفضى إليه ببعض ما تجد ، بل لم تكن تجسر على أن تطلب علاجاً لعلتها .. لو أمكن أن يكون لها علاج .

وكانت الفتاة كثيراً ما تخلو إلى نفسها فتذكر كيف كانت أمرأة أبيها تحتم عليها وهى صبية فى طور المراهقة ، أن تشد ثوبها إلى صدرها بعنف ، وكيف كانت تصر على أن تلبس الضيق من الثياب حتى يضغط بشدة على صدرها زاعمة أن ذلك يقيها البرد ، ومع ذلك فلم تكن تفعل مع بناتها ذلك الأمر ! ..

ترى أكان ذلك هو سبب ما بصدرها من ضمور ؟ أترى المرأة اللعينة كانت تعلم سلفاً ما سوف يؤدى إليه عملها الشائن فى ذلك الوقت ؟

لقد كانت الفتاة تغلق على ذلك الجحيم صدرها ، وكانت تنظر إلى الحياة نظرة استسلام ويأس ... فما كانت ترجو منها خيراً ، وما كانت تخشى منها شراً .

وعندما رحلت بهم السفينة من ميناء كورونا الأسباني – وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر – كانت وجوههم تفيض بالبشر ، فقد كانوا يتلهفون على تلك الرحلة فى عرض البحر ، وكان صحو الجو وصفو السماء ينبئان برحلة طيبة هادئة ، ولكن الفتاة لم يكن يهمها مما حولها شئ . وكان البر والبحر لديها سواء .. فما كانت الرياض الزهو أو الحدائق النضر ، وما كانت زرقة البحر أو صحوة السماء لتزيل تلك العلة الكامنة فى قلبها .

وسارت السفينة تمخر عباب اليم ، ومرّت بضعة أيام والقوم منغمسون فى لهوهم ومرحهم والفتاة مستغرقة في وجومها وإطراقها ، حتى فوجئوا ذات يوم بسماع دوى أصم آذانهم وهز جوانب السفينة .. فساد الذعر قلوبهم وملأ الرعب نفوسهم ، ولاسيما عندما علموا أن إحدى سفن القرصان قد بدأت فى مطاردتهم .

وحاول الربان أن ينجو بسفينته فأطلق لها العنان وانطلق يسابق الريح محاولا الفرار من مهاجمة القرصان . إذ لم يكن لديه من الأسلحة ما يستطيع به المقاومة ، ولكن السفينة المطاردة كانت أخف منه حركة فسرعان ما أدركته وأخذت فى تضييق الخناق عليه ، وانطلقت منها بضع قذائف للتهديد فمرقت من فوق سطح السفينة دون أن تصيبها ، وأخيراً لم يجد الربان بداً من التسليم .

وصعد القرصان بأسلحتهم إلى سطح السفينة ، ووقف ركابها

يرتجفون من فرط الهلع ، وقد أخذت النساء فى العويل والبكاء ... إلا واحدة .. لم يبد عليها أن الأمر يعنيها فى قليل ولا كثير ، فقد وقفت الفتاة كعادتها على حافة السفينة مطرقة واجمة ، وهى تنظر إلى أولئك الرجال المسلحين الذين أخذوا يتتابعون على ظهر السفينة ، وبدءوا عملية السلب والنهب فجمعوا كل ما على السفينة من أموال وجواهر وحلى ، وقد وقف قائدهم مكشراً عن أنيابه عابس الوجه مقطب الجبين .

ولم يكتف الرجال بذلك الكوم من الحلى التى جمعوها فقد أغرتهم تلك الثياب الثمينة الموشاة بالذهب التى ارتدتها أخوات الفتاة وأمهن فانقضوا عليهن وأخذوا فى تجريدهن منها وإضافتها إلى كوم الغنائم ، ثم حملوا كل ما استطاعوا اقتناصه وساقوا النساء أمامهم عرايا وقد ذهب الخوف بلبهن .

وعندما هم قائد القرصان بمغادرة السفينه لمح الفتاة في وقفتها فأشار إلى أحد رجاله أن يسوقها مع بقية النساء ولم تمض لحظات حتى كان القرصان قد أخذوا في الابتعاد بغنيمتهم الثيمينة .

ورسا القرصان بسفينتهم على الشاطئ الأفريقى ... حيث بدءوا يعرضون النساء للبيع في إحدى أسواق الرقيق ، ولم تمض لحظات حتى كانوا قد انتهوا من بيعهن جميعاً إلا اثنتين ... كانت إحداهما الفتاة ، وكانت الثانية .. إمرأة أبيها ...

وعاد القرصان بالفتاة والمرأة إلى السفينة . فأمر قائدهم أن تبقيا فيها خادمتين .

ومرّت الأيام والفتاة كما هي هي .. لم تسؤها حياتها الجديدة أكثر مما ساءتها حياتها السابقة ، فقد كانت فى الأولى خادمة وفى الثانية خادمة ، وما فتئت امرأة أبيها – رغم ما مر بها من كوارث ومحن – تخزها بكلماتها اللاذعة التى تقطر سماً .

ولكن شيئاً جديداً قد طرأ عليها ... شيئاً لم تستطع أن تحدد بالضبط إلى أين ينتهى بها ، إن كانت موقنة فى نفسها أنه لن يؤدى إلى خير ، ولكنها مع ذلك لم تستطع إلا قبوله فقد كان به نوع من المتعة ، وإن كانت متعة يائسة ولذة وهمية خرافية .

هذا الشيء الذى طرأ عليها لم يكن سوى الحب ! ! ... أجل لقد أحبت الفتاة ! .. وأحبت من ؟ . قائد السفينة وسيد القرصان ! !

لقد كانت الفتاة تقول لنفسها إنها مخلوقة سخيفة بلهاء فقد كان خيراً لها ما دامت قد عزمت على أن تشارك بقية الفتيات متعتهن ، وأن تمتع نفسها بنشوة الحب ... كان خيراً لها والأمر كذلك ، أن تكون معقولة فى اختيارها فتكتفى بحب أحد الخدم أو البحارة ، ممن يحتمل أن يبادلوها حباً بحب ، ولكن الأمر لم يكن بيدها .. إذ لم يكن لها خيرة فيما فعلت .. لقد كان القدر يمعن فى سخريته منها !

ورغم أن حبها كان مثلا لحب يائس ... فقد استطاع أن يبدد كثيرا من تلك الظلمات التى كانت تكتنفها ، وأن يذهب كثيراً من ذلك الحزن الذى يملأ قلبها ويعصف بنفسها ..

وذات يوم جرح الرجل فى معركة مع إحدى السفن ورقد على فراشه والدماء تسيل من جراحه ، وأحست الفتاة أن الدماء التى تقطر منه إنما تقطر من قلبها ، وبدأت فى تمريضه والسهر على خدمته ، فلم يك يغمض لها جفن ، وكانت تبتهل إلى الله أن يحفظ حياته .. رغم أنها لم تكن تأمل منه حتى كلمة شكر .

وأخيراً أبلّ الرجل مما ألم به ، وخرج على ظهر السفينة ذات ليلة يسير الهوينا ، وقد ساد حوله السكون وخيم الصمت ، ولكنه سمع همساً خفيفاً يحمله النسيم إلى أذنيه ، فاقترب من مصدره .... فإذا به يبصر الفتاة وقد جثت على قدميها ، ورفعت يديها إلى السماء ، وأخذت تتمتم بالدعاء .

ومس الرجل كتف الفتاة فانتفضت واقفة ، وخفق قلبها بشدة ، وسألها الرجل فى رفق :

– ماذا تطلبين من الله ؟

– أن يحفظ من أحب .

– إذاً فأنت تحبين ؟ !

وهزت الفتاة رأسها هزة خفيفة ، وصمت الرجل وبدا عليه شرود ووجوم ، ثم قال وقد سبح ببصره فى ظلمات الأفق :

– سأعيدك إلى بلدتك .. إلى من تحبين .. لقد كنت أود أسألك شيئاً ، ولكنى لا أرى له معنى الآن .. لشد ما أغبط من تحبين يا فتاة ! !

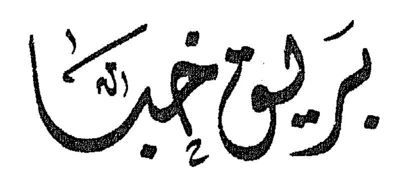
وبدا على الفتاة ذهول شديد وصمت الرجل برهة ثم أردف :

– كنت أود أن أسألك الزواج ، أنا أعلم أنكم تكرهون القرصان وتعتبرونهم قوماً غير أشراف .. ولكنى كنت على استعداد لأن أترك القرصنة وأتبعك حيث تشائين ، أما الآن فلا أظن هناك داعيا لذلك .. سأعود بك غداً إلى بلدتك ...

وظنت الفتاة نفسها حالمة فأرادت أن تستمتع بالحلم حتى آخره ، وأمسكت بيد الرجل وأنبأته أنها لا تود العودة ، ثم همست له بكلمات قلائل جعلته يحتويها بين ذراعيه ويلهب وجهها بأنفاسه ويصهر شفتيها بقبلاته .

وفى اليوم التالى رست السفينة على أقرب ميناء ، ونزل منها الرجل تصحبه الفتاة ، ولم يحاول العودة إلى السفينة بعد ذلك ، فقد صمم على أن يعيش مع زوجته رجلا شريفاً .

وصحبت الفتاة امرأة أبيها فقد صفحت عنها وغفرت لها ، ولكن القدر الساخر لم يكن قد صفح ولا غفر ... لقد مرت الأيام فحملت الفتاة وأخذ صدرها فى النضج والامتلاء ، وفى ذلك الوقت أصيبت المرأة بسرطان فى ثدييها ، ولم يكن هناك يد من قطع ثدييها للابقاء على حياتها ، وأنقذت حياة المرأة ، ولكنها عاشت بقية عمرها بلا ثديين .



لقد كنت فيما مضى لا أجسر على قولها خشية السخرية ، ولكننى لا أظنك الآن تسخر من مخلوقة بائدة هالكة .... كل ما بقى لها فى الحياة ومضات كلمع البرق تضئ ثم تخبو .

فى حياة

كل إنسان لحظات مضيئة براقة .. يلمع ضوءهافى نفسه فتريه الحياة مشرقة وضاءة ، ويرى كل ما حوله يزهو فى سناء عجيب لايدرى كنهه ولا منبعه .. ويخيل إليه أنه ما من كائن فى الكون إلا وقد مسه ذلك السحر الذى مسه .. فإذا بالدنيا كلها قد سُخرت لمتعته كأن كل ما فى الطبيعة لم يخلق إلا لكى يبعث فى نفسه النشوة ويملأها بالنعيم .

وقد تذهب تلك اللحظات فيخبو ضوءها .. وينطفئ بريقها .. ويأخذ الإنسان فى التعثر فى ظلمات الحياة المدلهمة وينظر للكون فإذا به قد فرقته فتنته .. وبدا كالشجرة الذاوية قد تساقطت أوراقها الخضراء اليانعة بعد أن جفت وذهبت نضرتها ، ويظل الإنسان يتخبط فى حلكة الطريق ، ثم ينهكه السير فيقف برهة يتلفت حوله ، فإذا باللحظات البراقة التى فى حياته قد بدا منها بصيص ضئيل وبقية من رمق .. عندئذ تطوف برأسه الذكرى فتنعشه وتثمله ، وتنفخ فيه من ضوئها الباهت قوة وأملا ، فيعاود السير .. وهو يتلفت خلفه بين لحظه وأخرى ، ليتزود منها بغذائه كما تجتر الإبل

غذاءها المختزن ، كلما شعرت بالحاجة إليه فى الصحراء الجدباء المقفرة عله يقيم أوده ويمكنه من السير حتى النهاية ، فلا يسقط إعياء فى منتصف الطريق .

وصمت صاحبى برهة .. وأطرق برأسه ، وأخذ ينقر بأصبعه على المنضدة الصغيرة . وقد شرد فكره وتاه بصره .

واضطجعت على المقعد ومددت ساقى على المنضدة .. ونظرت إلى صاحبى وقد تملكنى العجب .

ترى أى ذكرى هذه التى تطوف برأسه كما تطوف السحب السوداء بزرقة السماء فتجعلها قاتمة مظلمة .. أى لذة لديه فى هذه الذكرى التى تجيش بنفسه .. فتملؤها باللوعة .

وقطعت حبل الصمت متسائلا :

– أغلب ظنى أن كل ما فى المسألة لايعدو حادثة غرام فاشلة .. وخير لك أن تتناساها ، حتى لاتنكأ القرح .

ونظر إلىّ صاحبى من طرف عينيه وأشاح عنى بوجهه كأنى إبله أو مجنون ثم استغرق فى إطراقه وصمته .

وتركته وشأنه ، ثم أغمضت عينى ... ولكنه لم يطق الصمت ، فبدأ يتحدث وأخذ يقص قصته :

– كان أول ما أذكره فى هذه الحياة هو ذلك البيت الصغير الذى

تطله الأشجار من كل جانب .. وكانت الحياة يومئذ فى نظرى لا تعدو تلك الغابة الكثيفة الملتفة حول المنزل ، وكنت فى ذلك الوقت زعيم أطفال الناحية وشيخ صبيتهم ، ولم يكن هناك أحب إلىّ من حشد فى جموع ، وتسليحهم بعصى على شكل بنادق وسيوف فأكوّن بهم جيشاً أخوض به غمار المعارك الطاحنة وأغزو بهم الدور المجاورة ، ثم أعود إلى بيتنا ظافراً منتصراً ، وقد وضعوا على هامتى أكاليل الغار .. حيث أجد والدىّ فى انتظارى ، وقد كشرا عن أنيابهما فينتزعان أكاليل الغار ويطرحانى أرضاً ويسلبانى كل ما أحرزت من فوز وانتصار « بعلقة ساخنة » أعود بعدها هزيلاً ضئيلاً مطأطئ الهامة باكى العينين .

وكنت قد اخترت لى من بنات الناحية طفلة ، خلعت عليها لقب الإمارة ، تمهيداً لوضعها بجانبى على عرش الناحية وأخذت أخصها بالعطف والرعاية ، ولست أدرى لم اخترت هذه الطفلة بالذات ... ولكن أغلب ظنى أن اختيارى لها يرجع إلى ثراء أبويها .. وإلى أن جيوبها كانت دائماً عامرة بالحلوى والدريهمات التى كانت تمنحنيها عن طيب خاطر .

وكانت هناك طفلة أخرى نحيلة هزيلة ، كثيرة الصمت والهدوء .. هى ابنة « نجار » الناحية .. وكانت تحاول أحياناً أن تشترك معنا فى لهونا . ولكننى كنت أطردها دائماً ، فبقدر ما كنت أعطى الأولى من حب وعطف وعناية ورعاية ... كنت أعطى الثانية

سخرية وازدراء وكرهاً وبغضاء ... وكنت لا أترك فرصة تسنح ، حتى أعبر لها عن شعورى بالضرب المبرح والشتائم المقذعة .

وكانت المسكينة تعود إلى دارها حزينة باكية ، فتختفى برهة ثم تعود إلينا وجلة خائفة الصفح والمغفرة .

وكثيراً ما كنت أشعر بالندم لما أسببه لها من ألم وحزن ولاسيما عندما أبصر فى عينيها نظرات الاستكانة والخضوع وألمح فيهما آيات الحب والعطف ، فأحاول أن أروض نفسى على حبها ، أو على الأقل أمنعها من بغضها والتنكيل بها ، ولكنى كنت عبثاً أحاول .. فقد كنت أستشعر اللذة فى ضربها .

ومرت الأيام لذيذة ممتعة .. لا شئ فيها سوى اللهو والعبث ، حتى أخبرنا أبى ذات يوم أنه نقل من مقر عمله إلى بلدة بعيدة نائية .. ففكرنا طويلا .. وأخيراً استقر الرأى على أن تنتقل الأسرة بأكملها إلى هذه البلدة .

وأغلقنا البيت .. وحزمنا أمتعتنا ... وذهبت أودع أصدقائى من الصبية والبنات .. وكنت أتخيل أن رحيلى عنهم سيتركهم فى حزن اليتامى واكتئاب الثكالى وأنهم سيودعوننى بالبكاء والنحيب ، فصممت على أن أتظاهر بالجد والشجاعة وأن أخبرهم أننى سأعود إليهم عن قريب .

ولكنى عجبت إذ لم أجد هناك من يودعنى ، وعلمت أن صبياً غيرى قد تولى قيادتهم بعدى ، وأن أميرتى قد أصبحت أميرته ...

وأنهم قد انصرفوا جميعاً لتكريمه والهتاف له ... وأنه قد خرج بهم في أول معاركه وغزواته فتبعوه وتركوني دون أن يقولوا لي كلمة وداع واحدة .

وتلفت حولي فلن أجد سوى الصبية النحيفة النحيلة « ابنة النجار » وقد وقفت تنظر إلى في ذلة ومسكنة .

وتملكني الغيظ وامتلأت نفسي بالضيق ، فقد شعرت أن كرامتي قد خدشت وأن صولتي قد ضاعت .

ورأيت الطفلة تتقدم إلىّ مطأطئة الرأس ، وقد بدا عليها التردد وهي تحمل في يدها لفافة صغيرة .. وفي صمت وسكون دفعت إلىّ باللفافة ... ولكنى كنت ثائرا حانقا .. وزاد من حنقى أنه لم يأبه لي من كل هؤلاء الأصدقاء إلا تلك الطفلة الحقيره الذليلة التي لا أحس لها سوى البغض .

وفي ثورة من الغضب أمسكت باللفافة وقذفت بها في وجه الصبية وقلت لها حانقاً :

إغربى عن وجهي .. لا أريد شيئاً من أحد .

ولمحت في عيني الصبية دمعتين حبيستين .. ثم أعطتني ظهرها ، وولت هاربة .

ومرّت بضع سنوات قبل أن نعود مرة أخرى إلى دارنا المحبوبة ،

ولم يحدث فى تلك السنوات ما يستحق الذكر فقد مضت طويلة مملة ، ولم يكن فى البلدة الجديدة ما يبعث على التسلية ، قضيت تلك السنين الطوال بين البيت والمدرسة .

وأخيراً عدنا مرة ثانية إلى دارنا المحبوبة ، فإذا بكل ما غادرناه كما هو كأن الزمن هناك كان فى غفلة أو سكون .

نظرت إلى المكان ، فعرتنى إذ ذاك هزة وانتابتنى نشوة فقد رأيت الذهن يرجع القهقرى إلى أيام خلت ملؤها المتعة واللهو .. المتعة الطاهرة التى لايعقبها ندم .. واللهو البرئ الذى لايتبعه حسرة ولا أسف .

رأيت المكان بأشجاره الظليلة الخضراء اليانعة ، ورأيت حفر الخنادق التى كنا نلهو بها ، والحائط القديم الذى كنا نتحصن خلفه .

كان كل شئ كما هو لم تمسسه يد التغيير والتبديل .. حتى لكأنى ما غادرت المكان لحظة ، وبحثت عن الرفاق ، فقد كنت أشعر باللهفة عليهم ، وكان يخيل إلى من فرط ما وجدت المكان على حاله أننى سأجدهم أيضاً كما خلفتهم صبية صغاراً يملؤهم المرح والبهجة .. ولكنى كنت جد خاطئ .. فقد رأيت أن الزمن الذى غفل عن المكان لم يغفل عن أصحابه وبقدر ما كان المكان كما هو ، كان الأصحاب قد تبدلوا وتغيروا بل اختلفوا عما كانوا عليه كل الاختلاف ، حتى أصبحوا يكاد ينكر أحدهم الآخر . فقد

ذهب عنهم المرح واللهو ، وتفرق شملهم فمضى كل إلى حال سبيله .

ولكن امرءاً واحداً بقى على حاله ، حتى خيل الىّ أنه قطعة من المكان كالدور والأشجار ، وأنه لايمت بصلة إلى بنى الإنسان الذين غيرهم كر الأيام ، وبدلهم مرّ الزمان ، ولم يكن ذلك المرء سوى الصبية النحيلة الهزيلة « ابنة النجار » .

وقد تكون الصبية نمت فأصبحت فتاة مكتملة الأنوثة ومع ذلك فقد خيل إلىّ أنى لم أفارقها إلا بالأمس ، وتراءت لى صورتها وهى تمد يدها باللفافة فى خضوع وخشوع وذلة ومسكنة ، وتذكرت حين قذفت باللفافة فى وجهها ، ثم تندى عينيها المليئنين بالدموع والعطف ، والحب والرقة ، فكأنى ما فارقتها قط ، وأقبلت علىّ الفتاة تلقانى بوجه يبرق بالسرور ونفس ملؤها السعادة .

ومرة أخرى غمرنى الشعور بالخذلان والخيبة حين رأيت أن الكل قد نسينى عدا تلك الفتاة المسكينة ، ولكنى فى هذه المرة كنت أكثر عقلاً وأقل حمقاً ، فلم أصب على الفتاة جام غضبى ، ولم أحملها ذنوب الآخرين . وألنت لها جانبى فعطفت عليها ودهشت لها .

وعلمنا بعد ذلك أن الفتاة قد مات أبوها ، وأنها فى حال من الفقر تبعث على الأسى والأسف .. فرق أبواى لحالها ، وصممنا على إيوائها ... نظير أن تقوم بخدمة جدتى العجوز وقضاء حاجاتها .

وعاشت الفتاة معنا فى الدار أشبه ما تكون بخادمة .. وظلت دائما كعهدى بها ، طيبة القلب ، خاشعة ذلولا ، لايكاد يسمع لها في البيت حس ولا صوت .. كأنها قطعة من الأثاث ، أو شبح من الأشباح .. وكانت من طول سكونها وهدوئها تمر بى الأيام وأنا لا أكاد أحس أن لها وجوداً فى الدار .

وكانت نظرات الفتاة تذكرنى دائما بالسنين الخالية حينما كنت أمعن في ضربها أو سبها فتنصرف عنى باكية ثم تعود بعد بضعة أيام مطأطئة الرأس ملء عينيها الاستغفار والمسكنة فقد كنت لا أكاد أنظر إليها الآن ، إلا وأقرأ فى عينيها نفس النظرات ، حتى لكأننى مازلت أؤلمها وأمعن فى تعذيبها . وكانت تغيظنى منها هذه النظرات لأنى لم أك أعلم ماذا تريد بها ، ولم أستطع أن التمس لها العذر فى توجيه هذه النظرات إلى الآن وقد كففت عن أذاها وإيلامها .

وفى ذات يوم غادرت البيت ثائرا غاضباً ، فقد رفض أبى إعطائى ما طلبت من نقود ، وعدت فى المساء ، ثم بت ليلتى دون أن أخاطب أحداً ، واستيقظت فى الصباح ، فإذا بضجيج فى الدار لم أعتده ، وسمعت أصواتاً اختلط بعضها ببعض فنهضت لأرى ما حدث .

وأصابتنى الدهشة عندما علمت أن بعض الحلى قد اختفت ، وأن المسكينة قد أقرت بأنها هى السارقة .

وحاولنا عبثاً أن نعرف أين ذهبت الحلى ، ووعدناها أننا سنعفو

عنها إن هى ردتها ، وسنغفر لها خطيئتها على ألا تعود إلى مثلها مرة أخرى ، ولكنها لم تجب إلا بالصمت .

وزاد كرهى للفتاه واختقارى لها عندما علمت أنها تخفى وراء مظهرها الهادىء الرقيق نفساً سارقة شريرة .

وأخير لم نجد بداً من أن نبلغ الشرطة ، فسيقت الفتاة إلى السجن وأودعت غياهبه .

ومرت الأيام بعد ذلك ، ونسينا أمر الفتاة ، وفى ذات صباح افتقدت أمى بعض حاجيات تافهة فلم تجدها وأطالت البحث والتنقيب دون جدوى .

وأخيراً حدث ما ملأنا عجباً ، فبدلا من أن تجد أمى ما افتقدته من أشياء تافهة ، عثرت على الحلى المفقودة التى أقرت الفتاة بسرقتها .

وعجبت أشد العجب ولم أعلم ما حمل الفتاة على أن تلقى بنفسها إلى التهلكة ، وسرعان ما ذهبت إلى الشرطة أبلغها الخبر ، وأعلن لها براءة الفتاة .

وذهبت إلى السجن ، وبعد لحظة قصيرة ضمتنى والفتاة حجرة من حجرات ذلك السجن المظلم الرطب .

رأيت الفتاة مسجاة على فراش قذر.. وأخبرونى أنها مريضة ، وكانت مغمضة العينين ، شديدة الشحوب ، وقد برزت عظام وجهها من فرط الهزال .

وربت برفق على يدها ، ففتحت عينيها .. وما كادت تبصرنى حتى صدرت منها صيحة فرح لم تستطع كتمانها ، ولمع فى عينيها الغائرتين بريق السرور المشوب بالذهول والدهش وصاحت فى صوت مبحوح :

– أحقاً أنت ؟

وساد الصمت بيننا لحظة ثم سألتها السؤال الذى كان يملأ نفسى حيرة وعجباً :

– ما الذى حدا بك إلى الكذب فزعمت أنك سارقة الحلى ؟

وترددت الفتاة برهة ثم قالت فى صوت خفيض :

– لم أرد أن أراك فى مأزق حرج .

– أنا ؟ !

– نعم . لقد كنت أعلم أنك فى حاجة إلى نقود فآثرت لنفسى تحمل عار السرقة حتى أبعد عنك الريب والظنون .

– أو تظنين أننى السارق ؟

– إما أنت .. وإما أنا !

– ياللحمقاء ! ! لا أنت ولا أنا .. فقد وجدنا الحلى ، ولم يكن هناك سارق ، وقد ألقيت بنفسك فى السجن ولقيت العذاب دون أى مبرر .

وكنت أنتظر أن يملأ السرور نفس الفتاة .. ولكن وجدت

سحابة من الحزن قد خيمت على وجهها ، ورأيتها تشير الىّ أن أجلس بجوارها ، وأخذت الفتاة تقول فى صوت هامس :

– إننى مخلوقة تعسة لا أمل لها فى هذه الحياة .. إنى سأقول لك ما أقول ، لا لشئ إلا لشعورى بقرب النهاية ، ولولا ذلك لما جرؤت على قوله ، فلا إخالك تأبى على مخلوقة على وشك الفناء أن تمتع لحظات بما أبته عليها الحياة .. أحبك ... ! ولشد ما يسعدنى أن أقول لك أني أحبك .. فقد كنت فيما مضى لا أجسر على قولها خشية السخرية .. ولكنى لا أظنك الآن تسخر من مخلوقة بائدة هالكة كل ما بقى لها فى الحياة ومضات كلمع البرق تضئ ثم تخبو ، فكأنها ما كانت .. أنا لا أريد منك شيئاً لأننى لا أطمع فى شئ مطلقاً ، كل ما أريده منك هو ألا يأخذك الغضب كسابق غضبك منى بل ، تصبر على سخافة قولى وتحتمله ، حتى أغادر تلك الحياة البغيضة إلى نفسى !

ولو قال لى قائل فى سابق الزمن إننى سأعشق هذه الفتاة لرميته بالجنون .. ولكننى فى هذه اللحظة شعرت أننى لم أحب فى حياتى مخلوقة قدر ما أحببت هذه المخلوقة اليائسة البائسة .

وعدت بالفتاة إلى البيت وأرحتها فى فراشى وأحضرت لها طبيب الناحية ، ففحصها وطمأننى على حياتها .

وشد ما أسعدنى أن أعلم أن الفتاة قد باتت آمنة ، وأن حياتها لم تعد فى خطر ، ودخلت عليها متهلل الوجه وأمسكت بيدها

فى يدى وأنبأتها أن الطبيب قد قال إنها ستنجو وأنى سأعوض لها كل ما مضى من شقاء ، وسأكفر عن كل السيئات .

ومرت بى بعد ذلك اللحظات المضيئة البراقة ، فكنت أجلس إليها فى فراشها ، وقد غمرنى الحب فأرانى كل ما فى الكون مزدهراً منيراً . وكل ما فى الحياة ضاحكا يفيض بالنعيم والسرور .

وفى ذات يوم وجدت الفتاة قد ازداد شحوبها وسمعتها تهمس فى أذنى :

– لقد حلت النهاية ! .

وأصابنى الفزع وقلت مشدوها :

– لقد قال الطبيب إنك ستنجين ،

فهزت رأسها ببطء وإعياء وهمست :

– الطبيب لايدرى .

وطلبت منى أن أقترب منها ثم تمتمت فى أذنى :

– كم أنا شاكرة لك جميل صنيعك .. لقد أعطيتنى فى أيام ما افتقدته فى سنوات طوال .. لست حزينة لأنى سأفارق الحياة ، فإنى لم أكن أطمع أن أنال فيها أكثر مما أخذت .. لقد أصبت كل ما كنت أحلم به من متعة ونعيم ، وحرام علىّ أن أطمع فى أكثر من ذلك .

وذهبت الفتاة وانطفأ سراج حياتها .. فزال البريق ، وخبا

الضوء .. وشعرت أن الحياة بعدها قد أصبحت أمام عينىّ .. حالكة الظلمة ، شديدة الوحشة .

* * *

وصمت صاحبى ، ورأيت وجهه يفيض باللوعة والأسى ، ولمحت فى عينيه دمعة تترقرق .. فقلت :

– لا عليك يا بنى .... هكذا الإنسان دائماً . يزهد فيما منح ، ويبكى على ما ضاع .

* * *

هذا هو الحب

وأبصرت بشبحه فى الظلمة وقد دفن رأسه بين كفه ، ومسته مساً خفيفاً فرفع نظره إليها ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، ولا حرك مرآها منه ساكناً .....

لا ياسيدى .. هذا مبلغ زهيد جداً .. أنا لست لصاً حتى أبيعك إياها بمثل تلك الدريهمات التافهة التى تعرضها على .

– أنت وشأنك .. فلست أرانى شديد الحاجة إلى سلعتك .. فهى سلعة بائرة ، وسآخذها منك « على عيبها » .

– ولكنك تبخسها حقها .. حتى مع هذا العيب ! ! والله لقد ابتعت بالأمس « نعجة » بأضعاف هذا الثمن أفلا تساويها بنعجة ؟

– نعجة سليمة .. خير من امرأة عرجاء .. لن أدفع أكثر مما قلت لك .

– لنفرض يا سيدى .. أنها ثلاثه أرباع امرأة ، أو حتى نصف امرأة ... أفلا يستحق هذا النصف عشرة أمثال تلك الدريهمات التى تعرضها ... ألا تظن أن هذا الوجه والعنق .. بل وهذا الصدر ؟ .

ثم نهض الرجل وجذب ثوب الفتاة فكشف عن نصفها الأعلى ... ثم أردف قائلا :

– إن الصدر وحده يساوى أضعاف ذلك المبالغ الذى تساومنى فيه .. هب يا سيدى أننى لا أبيعك إلا النصف الأعلى ، ولنخرج الساق الباقية من الحساب ... ألا ترى أنك قد غبنتني غبناً شديداً .

ونظر الرجل الآخر إلى الفتاة نظرة فاحصة وقد تهدل ثوبها وبدا صدرها فى استدارة وبروز كأنها تمثال أبدع صانعه ... وبدت بشرتها نقية صافية في بياض مشوب بحمرة خفيفة .. فلم يستطع الرجل أن يقاوم طويلا ، وأنساه ذلك الصدر الذى وثب أمامه فى ثورة وتحد أن بالفتاة عيباً آخر فلانت عريكته ، ولم تمض هنيهة حتى كانت الصفقة قد تمت ، وغادر الرجل السوق تتبعه بضاعته .. ذات الساق الواحدة ، وقد أخذت تقرع أرض الطريق بساقها الخشبية قرعات منتظمة متوالية .

كانت السوق فى إحدى بلاد أوروبا الوسطى ، وفى تلك الأزمنة الغابرة التى كانت تعرض فيها الأجساد البشرية للبيع كأنها قطعان ماشية ، وكان الرجل الذى ابتاع الفتاة صاحب إحدى الفرق التمثيلية المتنقلة .. التى حطت رحالها خارج المدينة وأخذت تستعد لإقامة مسرحها ونصب خيامها .

وعندما عاد الرجل إلى مضرب فرقته لم يستطع القوم أن يخفوا دهشتهم... أو يمنعوا ذلك التغامز والهمس الذى سرى بينهم .

ترى ماذا أعجب الرجل من تلك الفتاة العرجاء ؟ . وماذا تراه ينوى أن يفعل بها ؟ . أتراه قد عزم على أن يشنف آذان الجماهير

بتلك الطرقات المفزعة التى تصدرها ساقها الخشبية فى ذهابها وجيئتها ؟ ! .

ولم تسلم الفتاة من سخريتهم اللاذعة فى بضعة الأيام الأولى التى حلت فيها بينهم ، ولكن القوم ما لبثوا أن أنسوا إليها بعد ذلك .. فقد كانت لطيفة العشرة حلوة الفكاهة ، وكانت بنفسها عذوبة ورقة ، وكانت على شيء كثير من جمال ، ولولا ذلك العرج الذى بها لم تردد القوم فى أن يظهروها على المسرح ويشركوها تمثيلهم ورقصهم .

ومع ذلك فقد أثبتت الفتاة أنها يمكن أن تؤدى للقوم كثيراً من تلك الأعمال التافهة التى لايستغنون عنها ... كترقيع الثياب ورتقها ومساعدة الممثلات والراقصات على ارتداء ملابسهن وغير ذلك من الأعمال التى لاتمنعها ساقها الخشبية من أن تؤديها .

وعندما كانت الفتاة تخلو إلى نفسها أو تقف بين الكواليس لمشاهدة الممثلات وقد أخذن ينثنين فوق المسرح والجماهير ترمقهن بأعين الإعجاب واللهفة وتلهب أيديها تصفيقاً لهن .. كانت تتمنى لو استطاعت أن تفعل كما يفعلن ، وأن تعتلى خشبة المسرح ولو مرة واحدة حتى تستطيع أن تنعم بذلك الهتاف والإعجاب ، ولكنها كانت تعلم أن أمنيتها عسيرة التحقيق ، وأن تلك الساق الخشبية التى تثير بها الضجيج أينما حلت ستجعلها مبعث شفقة بدلا من أن تكون موضع تقدير وإعجاب .. بل من

يدرى ربما قابلها الجمهور بالصفير والسخرية ، وأعطاها ما تستحق من مهانة وازدراء .

وبدأت الفتاة تحس بالحزن يتطرق إلى نفسها ، وتشعر بمركب النقص الذى بها وهى التى ماساءها قبل ذلك الوقت أن تكون بساق واحدة أو حتى بلا ساقين ، فما أحست قط أن ساقها الخشبية قد حرمتها من أمنية تتطلع إليها . لأنها فى الواقع لم تكن لها أية أمنية ، ولكنها الآن تحس أنها تقف عقبة فى سبيل حلمها الجميل وهو اعتلاء خشبة المسرح .

وأخفت الفتاة ما بنفسها خشية أن يسخر منها القوم ، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التسلل فى ظلمات الليل والقوم رقود ، فتعتلى خشبة المسرح وتنهمك فى التمثيل وساقها تقرع الأرض قرعا مفزعاً فى ذلك السكون الموحش والصمت المخيف ، وهى تتوهم أن أكف الجماهير يكاد يدميها التصفيق ، وحناجرهم تكاد تبح من فرط الهتاف

واستطاعت الفتاة أن تجد العزاء بتلك الطريقة الشاذة ، فأخذت تمتع نفسها فى الظلمات ما حرمها النور إياه .. حتى نشأ بينها وبين المقاعد الخالية نوع من الود والتفاهم .

واستمرت الفتاة فى عمليتها العجيبة ، وفى كل ليلة تشتد لهفتها على التمثيل .. حتى كانت ذات ليلة وقد أخذت تعدو فوق المسرح منهمكة فى أداء أحد الأدوار فأحدث عدوها ضجيجاً أيقظ

الحارس ، فهب من نومه مذعوراً وقد ظن أن لصوصاً يحاولون السرقة .... فأوقد مشعله ، وقام يتحسس طريقه نحو مصدر الضجيج فأدهشه أن يرى العرجاء وقد تسمرت فوق خشبة المسرح ، وسألها عما تفعله فى هذا الوقت من الليل .. فلم تحر الفتاة جواباً ، وأصابها الارتباك والذعر فظن بها شراً ، وأمسكها من يدها بعنف ، وهمَّ يسوقها إلى صاحب الفرقة . ولكنها بكت واستعطفته فوعدها بإطلاق سبيلها وألا يبوح بأمرها إذا صدقته القول وأنبأته لاى أمر كان اعتلاؤها المسرح فى جنح الظلام ، وعلام ذلك الضجيج الذى كانت تحدثه بساقها ؟

وأطرقت الفتاة ثم نظرت إليه من خلال دمعتين تلمعات فى ضوء المشعل الذى حمله في يده ، وبدأت حديثها فى صوت مرتجف وأفضت إليه بجلية الأمر ! ! ....

وأصابه عجب شديد .. فما خطر على باله أن مثل ذلك الأمر يمكن حدوثه ، وأحس بعطف شديد نحو الفتاة وربت عليها برفق وسألها لِمَ لم تنبئه قبل الآن حتى كان يقبل على مشاهدتها ، ويضيء لها الأنوار .. فأجابته بأنها تخشى السخرية ، وأنها تكتفى بإرضاء نفسها بالتمثيل أمام المقاعد الخشبية لأنها تحس بالاطمئنان إليها ، وأمسك الفتى يدها وأكد لها أنه لايسره شئ كمشاهدته تمثيلها وأنه لن يسخر منها .

وأضاء الفتى أنوار المسرح وأرخى الستر ثم دق بقدمه ثلاث

دقات إيذاناً بابتداء التمثيل ثم رفع الستار ببطء وقفز بسرعة فاتخذ مكانه فى المقاعد الأمامية وأخذ يصفق بشدة .

وأحست الفتاة بشيء من الخجل فى بادىء الأمر فهى لم تتعوّد إلا التمثيل أمام المقاعد الخالية ، والمسرح قد شملته ظلمة شديدة .. أما أن تمثل فى وسط هذه الأضواء وأمام « هذا » الجمهور فذلك مالا عهد لها به .

وانحنت فى ارتباك شديد ثم بدأت التمثيل ، ولم تكد تمضى برهة قصيرة حتى أخذ الخجل يتطاير من نفسها وانهمكت فى أداء دورها أنهماكاً شديداً ، ولم تكد تنتهى منه حتى كان الفتى يضج بالهتاف والتصفيق .. ثم قفز من مكانه وأرخى الستار وعاد بسرعة إلى مكانه يواصل التصفيق طالباً الاستعادة ، ثم قفز مرة مرة أخرى فرفع الستار ، وقفزة أخرى أعادته إلى مكانه .

وأخيراً انتهت الفتاة من التمثيل فودعها الفتى بعد أن قبل يدها وأكد لها أنه سينتظرها فى الليلة القادمة .

وعادت الفتاة إلى حجرتها وقد غمرها فيض من السعادة لم تحس بمثله من قبل .

وفى الليلة التالية عندما تسللت إلى المسرح ، وجدت الفتى قد أعد لها باقة من الزهور ، كما أعد لها غرفة لتغير ثيابها فيها وترتدى الملابس الملائمة للدور الذى ستقوم به .

ومرت الأيام وكلاهما مواظب على عمله تمام المواظبة ، دون

أن يحس أى منهما بشيء من الملل .. بل على النقيض من ذلك كانا ينتظران تلك الساعة بصبر فارغ ... فلم يكن هناك أحب إلى نفسها من التسلل إلى المسرح بعد رقود القوم فنبدأ هى التمثيل ويبدأ هو التصفيق والإعجاب .

ولا نظنه شيئاً عجيباً .. إذا انتهى الأمر بهذا المسرح العجيب .. بأن ينصب الهوى شراكه حول ممثلته الوحيدة ومشاهده الوحيد .. فإذا بكل منهما صب مولع يتردى فى هوى صاحبه .

وهكذا أخذ التمثيل ينتهى كل ليلة بلقاء جميل .. لقاء للأيدى ، يبعث فى جسديهما رجفة ، ولقاء للعيون ، يبعث فى رأسيهما نشوة ، ولقاء للشفاه يذيق كلا منهما من المتعة ما ينسيه دنياه .

وفى ذات يوم علمت الفتاة من صاحبة لها أن فى المدينة رجلا اختص فى صنع الأرجل الصناعية ، وأن الرجل قد اشتهر بمهارته الفائقة ، فما من أعرج صنع له ساقاً إلا وبدت كأنها ساق طبيعية وذهبت عنه كل مظاهر العرج حتى لايكاد المرء يميز قط بينه وبين ذى الساقين السليمتين .

ونفذت هذه الكلمات إلى قلب الفتاة ، واخذت تطن فى اذنيها طنيناً عجيباً .. أيمكن أن يكون ذلك صحيحاً ؟ .. أيمكن أن تذهب عنها مظاهر العرج وتبدو كأنها سليمة الساقين ؟ . هذا شيء لا تستطيع أن تصدقه .. فلو صح هذا الأمر .. لأمكنها أن تظهر

على المسرح أمام الجماهير ... فتحقق تلك الأمنية التى تجيش فى صدرها .

وفى ذات صباح اكتشف القوم أن الفتاة قد اختفت فجأة ولم يستطع أحد منهم أن يعرف سر اختفائها حتى ولا صاحبها حارس المسرح الذى كاد يجن جنونه عندما انتظر الفتاة كما تعود أن ينتظرها فى جنح الليل فلم تأت .

وحاول الفتى البحث عنها فذهبت محاولاته أدراج الرياح ، ومرت عليه الليالى الطويلة السوداء وهو ينتظرها كل ليلة كما تعوّد أن ينتظرها ، وقد يمر عليه الليل طوله وهو جالس فى مقعده يرقب المسرح دون أن يغمض له جفن ، وقد أرهف أذنيه عله يسمع طرقات ساقها الخشبية التى كان يميزها بها عن بعد .

وأخيراً ظهرت العرجاء .. فقد عادت مرة ثانية ، ولكنها لم تعد بعد عرجاء .. لقد أصبحت مخلوقة أخرى !

أقبلت سليمة الساقين وقد بدا قوامها فى اعتدال ورشاقة ، ولم يعد عرج ساقها يلهى أنظار المرء عن جمال وجهها فبدت ساحرة فاتنة ... لقد ذهبت إلى صانع السيقان فحقق لها تلك الأمنية التى كانت أحلاماً وأوهاما .

ولم يطل الوقت بالفتاة حتى تحققت الأمنية التالية .. فاعتلت المسرح أمام الجماهير فى بضعة أدوار ثانوية .. ثم أخذت تتدرج بسرعة عجيبة .. حتى انتهى الأمر بها بعد فترة قصيرة إلى أن أضحت أولى الممثلات .

ورأى الفتى أن هوّة قد قامت بينه وبين الفتاة .. فقد أحس منذ رآها بعد أن نزعت تلك الساق الخشبية ، أنه لم يعد يشعر لها بذلك الحب الذى كان يتأجج فى صدره ولم يعد يحس تلك اللهفة التى كانت تدفعه دائماً إلى أن يحتويها بين ذراعيه ، لقد كان يحبها على علاتها .. لقد كان يحب ذلك العرج الذى بها ، وكانت تطربه طرقات ساقها الخشبية ، ولكنها الآن قد أصبحت شيئاً آخر .. شيئاً غريباً عنه .

ونأى الفتى بنفسه عنها . ولم يكن ذلك بالشيء العسير عليه .. فقد شغلها هى الأخرى ذلك النصر البراق الذى أحرزته وتلك الوجوه المعجبة التى التفت حولها .. حتى ذهبت ذات ليلة إلى فراشها متعبة الجسد ، وما زال رنين التصفيق يدوى فى أذنيها ، ولكنها لم تكن تحس له تلك المتعة التى كانت تتخيلها ، وذكرت تلك الليلة التى سمعت فيه تصفيق أول يدين صفقتا لها ، وذكرت تلك السعادة التى غمرتها وقتئذ وأحست بالحنين لصاحبها ، فتركت فراشها وتسللت إلى المسرح المظلم ، ثم اتجهت إلى حيث تعودا أن يلتقيا ... فأبصرت بشبحه فى الظلمة وقد دفن رأسه بين كفيه ، ومسته مساً خفيفاً فرفع نظره إليها ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ولا حرك مرآها منه ساكناً ، ودهشت الفتاة من ذلك الجمود الذى بدا عليه ، ولكنه أنبأها فى هدوء أنها لم تعد تلك الفتاة التى أحبها من قبل ، وإنما هى فتاة أخرى غريبة عنه ، وأن صاحبته الأولى قد ذهبت إلى غير عودة .

وغادر الفتى المكان فى صمت وإطراق وعادت الفتاة إلى حجرتها مكتئبة واستلقت على فراشها برهة ثم قفزت ومدت يدها إلى ساقها الصناعية ، فنزعتها وحطمتها شظايا ثم رفعت الساق الخشبية القديمة الملقاة فى ركن الغرفة فوضعتها مكانها .

وبعد برهة سمع الفتى صوتاً عجيباً ، جعله يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدمه .. أتراه واهماً ، أترى هذا الصوت الحبيب إلى أذنيه ، صدى للذكريات أم هو حقيقة ؟

واقترب الصوت .. صوت طرقات الساق الخشبية .. وظل يقترب ويتقرب ، حتى أبصر بصاحبته أخيراً ، وفى مشيتها عرجها القديم .

وفى اليوم التالى فغر القوم من الدهشة أفواههم عندما أبصروا الفتاة وقد عادت إلى ساقها الخشبية ، وإلى سابق أعمالها التافهة ، فلم يروها تعتلى خشبة المسرح بعد ذلك قط ! !

ولكن لو فكر أحد منهم فى الاستيقاظ فى جنح الليل والكل رقود يغطون فى نومهم ، لأبصر بالفتاة العرجاء ، وقد انهمكت فى التمثيل على خشبة المسرح ، وأخذت تدق أرضه بساقها الخشبية ، ولأبصر أحد المقاعد وقد جلس عليه حارس المسرح ، وقد التهبت يداه من التصفيق ؟

ولو سألنى حينئذ .. أهؤلاء مجانين ؟

لقلت له : أبداً .. هذا هو الحب ! !

للمـــؤلف

اطيـــاف	قصص قصيرة	١٩٤٧
نائب عزرائيل	رواية	١٩٤٧
اثنتا عشرة امرأة	قصص قصيرة	١٩٤٨
خبايا الصدور	قصص قصيرة	١٩٤٨
يا امة ضـــحكت	قصص قصيرة	١٩٤٨
اثنـــا عشر رجلا	قصص قصيرة	١٩٤٩
أرض النفاق	رواية	١٩٤٩
فى موكب الهوى	قصص قصيرة	١٩٤٩
من العالم المجهول	قصص قصيرة	١٩٤٩
هذه النفوس	قصص قصيرة	١٩٥٠
انى راحـــلة	رواية	١٩٥٠
مبكى العشاق	قصص قصيرة	١٩٥٠
بين أبو الريش وجنينة ناميـــش	قصص قصيرة	١٩٥٠
أغنيـــات	قصص قصيرة	١٩٥١
أم رتيبة	مسرحية	١٩٥١
هذا هو الحب	قصص قصيرة	١٩٥١
صور طبق الأصل	قصص قصيرة	١٩٥١
بين الأطـــلال	رواية	١٩٥٢
السـقا مات	رواية	١٩٥٢
سمار الليالى	قصص قصيرة	١٩٥٢
الشيخ زعرب	قصص قصيرة	١٩٥٢
نفحة من الايمان	قصص قصيرة	١٩٥٢
وراء الستار	مسرحية	١٩٥٢
ست نساء وستة رجال	قصص قصيرة	١٩٥٣
هذه الحيـــاة	قصص قصيرة	١٩٥٣

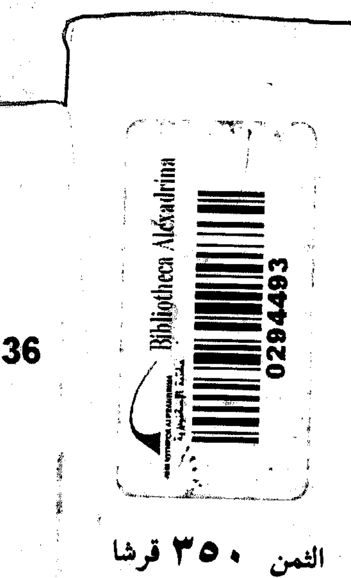
البحث عن جسد (رواية ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات (مسرحية ١٩٥٣)
فديتك يا ليلى (رواية ١٩٥٣)
ليلة خمر (قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة (قصص قصيرة ١٩٥٣)
رد قلبى (رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع (قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة (رواية ١٩٥٦)
ايام تمر (مقالات ١٩٥٧)
من حياتى (مقالات ١٩٥٨)
لطمات ولثمات (مقالات ١٩٥٩)
نادية (رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع (رواية فى جزأين ١٩٦١)
ايام مشرقة (مقالات ١٩٦١)
ايام وذكريات (مقالات ١٩٦١)
ايام من عمرى (مقالات ١٩٦٢)
ليل له آخر (رواية فى جزأين ١٩٦٤)
اقوى من الزمن (مسرحية ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك (رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك (رواية ١٩٧٠)
من وراء الغيم (مقالات ١٩٧٠)
ايام عبد الناصر (مقالات ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه (رواية ١٩٧١)
طائر بين المحيطين (رحلات ١٩٧١)
العمر لحظة (قصة ١٩٧٣)

رقم الايداع ٨٧/٤٠١٣

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه